
خليفة حسين مصطفى
خريطة الأحلام السعيدة
قصص
قصيرة

خريطة الاحلام السعيدة

خليفة حسين مصطفى

خريطة الأحلام السعيدة

قصص قصيـــرة

منشـــورات

الكتاب والتوزيع والاعلان والمطابع

الطبعة الاولى

١٩٨١م - ١٣٩١و.ر.

الكتاب والتوزيع والأعلان والمطابع
الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية


حسين يوسف الكوسي
الرجل
الذى يضحك

وقف على حافة الرصيف ، فى مواجهة مقهى زرياب ، ذلك المقهى العتيق الواقع عند زاوية ممر صغير ، والذى يطل على شارع الاستقلال ، يلوذ به المارة عندما ينتابهم الضجر ، وتكل أقدامهم من اعادة رسم خريطة المدينة صعودا وهبوطا فى دورة واسعة ، تنتهى بالعودة إلى المقهى وكأنه المحطة الأخيرة .

وقف على حافة الرصيف فبدأ وكأنه يتهيأ لعبور الشارع فور أن يتوقف سيل العربات المتدفق من كلا الاتجاهين ، أو يخف قليلا ، ولذلك فقد كان من المحتمل أن يجتاز المسافة الضيقة التى تفصل بين الرصيفين ويدلف إلى المقهى . . إلا أن ذلك لم يحدث .

سحب قدمه قبل ان تلامس اسفلت الشارع .

ترى ما الحكمة فى أن يقذف الإنسان بنفسه فى ذلك الصندوق المفرغ من الهواء النقى — لم يتحرك من مكانه ، وظل ينصت إلى إيقاع افكاره المحمومة التى تذرع رأسه فى سرعة وفوضى ، يجيل بصره فيما حوله ثم يخفض رأسه ، ويلوذ مرة أخرى بخواطره ووحدته ، لا أثر لوجه يعرفه أو صديق يحييه ، فقد خلت حياته من الأصدقاء منذ فترة من الوقت ، منذ

---

(١) كتبت هذه القصة قبل الثورة ونشرت فى الاسبوع الثقافى عام ١٩٧٤م ، ونشرت بقية القصص فى نفس الجريدة فيما بين عامى ١٩٧٣–١٩٧٤م .

أن أشيع أنه أصيب بلوثة عقلية تسببت فى طرده من العمل ، لوثة عقلية ، إنه لا يعرف معنى هذه الكلمة بالتحديد ، إنه حر فى أن يختار الحياة التى تروق له ، أطلق لحيته وهجر وظيفته ، وشرع يلف شوارع المدينة على غير هدى ، يمر على بائع الجرائد ، ويشترى جريدة يطويها تحت ابطه ولا يتصفحها قط ، كان يعرف مقدما ماهى الصور والأسماء والكلمات التى سوف تحدق فيه من بين الصفحات ، فى كل مرة تطالعه نفس الأخبار والوجوه ، أما لماذا يشترى جريدة ولا يفتحها ، ومن ثم لا يقلع عن هذه العادة ، فهو لم يجد لكل ذلك أى تفسير .

ظل واقفا ، وإحدى يديه فى جيبه ، بينما كان يرفع يده فى حركة عصبيه ، يحك اذنه ، أو يمسح بها على وجهه الذى يغطيه شعر كثيف أشعث .

تمر يده على شعر وجهه الخشن ، ثم تلف إلى أعلى وتتمهل فوق الحاجبين المقطبين ، تنفرج أصابعه الرقيقة وتضغط على مقدمة الرأس بشدة ، يؤرجح يده فى الفراغ قبل أن يعيدها إلى جنبه بلا حراك .

ما الذى يمكن أن يعبر عنه وقوف إنسان ما فى ذلك الشارع المزدحم ، إنه لا يعبر عن شيء فى الغالب ، وخاصة اذا كان هذا الانسان رجلا وليس إمرأة ،فلو كان إمرأة فقد يتغير الموقف برمته ، ويكتسب صورة أخرى مثيرة للانتباه والفضول ، قد تكون بداية لقصة حب ، أو مشاجرة حامية ، وقد تكون بداية لجريمة مخلة بالشرف ، فمن النادر أن يصادف المرء فتاة تقف على ناصية ذلك الشارع بمفردها ، غير مبالية بشيء ، وليس ثمة رجل يقف بجانبها يدفع عنها زحام العيون والرغبات المحمومة، أو على الأقل، تضع يدها فى يد طفل يطرد عنها الشكوك والشبهات .

وبما أن الواقف كان رجلا ، يغطى وجهه شعر أشعث ، رث الثياب وضئيل القامة، شديد النحافة لدرجة أن جبته القديمة تتسع حول كتفيه وتمتلىء بالهواء ، ولهذا فإن كل من يمر به يرمقه بنظرة قصيرة، ويواصل سيره ، فذاك الرجل لا يساوى أكثر من نظرة عابرة .

إنه يقف فى صمت ويده فى جيبه ، ويدير عينيه الصغيرتين المحمرتين فى الفراغ ، إذا فما الذى يمكن أن يضطر المارة إلى أن يديروا نحوه رؤوسهم أو يتأملوه أكثر مما يجب ، فلو بقى هناك قر نا كاملا لما سأله أحد عن سبب وقوفه فى ذلك المكان . . أو طالبه بابراز هويته .

ليبق هناك ، ما طاب له ذلك ، غارقا فى صمته وكآبته ، إنه لن يؤذى أحدا ، فهو لا يملك القوة التى يمكن أن تحرك ريشة من مكانها ، وهو فى هيئته المضطربة ، التى تبعث على الرثاء ، ونحافته ، وشروده ، لا توحى بأية صفات عدوانية ، لشد ما هو مرهق وضعيف ، هذا كل ما تعبر عنه شخصيته ، أما عيناه ، أو نظرته فلا يرتسم فيها شى سوى الكآبة الشديدة ، ثم هو فى آخر الأمر يلوح وكأنه يتأمل شيئاً بكثير من الحيرة والقلق ، فهو لا يحرك رأسه ولا يشعر بالصخب من حوله ، ينظر إلى قدميه ، ويستغرق فى التفكير غير مبال بما يجرى فى الشارع ، وما تضطرب به الأرصفة .

لا اعرف بالضبط ما الذى كان يفكر فيه الرجل عندما انطلق يضحك بصوت عال ، ويتجاوب جسده الهزيل مع ضحكاته فيهتز بعنف ، وربما قال فى نفسه : ان الضحك طريقة من طرق التعبير — أو لعله تذكر نكتة طريفة ، أو حكاية بالغة الطرافة ، وليس من المستغرب أنه لم يضحك منذ سنوات ، وأنه كان يكتنز الضحك بدلا من الأموال والنساء ، وأخيرا لم يعد فى إمكانه أن يسيطر على نفسه ، امتلأ حتى الحافة ، وها هو يفرغ كل

ما ترسب فى أعماقه من ضحك ، كان يقهقه فى جنون ، وتكاد نوبات الضحك الهستيرية أن تلقى به على الأرض أو تقذف به فى الهواء .

شرع الرجل يدور حول نفسه ، ويرتعش كالريشة ، يرفع يده إلى فمه ويحاول أن يكتم ضحكه ، أو لعله كان يفعل ذلك لكى يمسح الرغوة التى طفت على شفتيه .

احتقن وجه بدم أسود ، وقد بدت عيناه لامعتين وسط تركيبة عجيبة من الشعر والعظام المختلجة .

لو أن نوبة الضحك تفارقه حتى يلتقط أنفاسه ، ويستعيد شيئا من قواه ، لو أنه يجد الفرصة فيستنشق كمية أكبر من الهواء ، لو تحدث معجزة تنقذه فجأة ، جحظت عيناه ، وذهبت كل جهوده لايقاف نزيف الضحك عبثاً .

اعترته نوبة ضحك أشد من الأولى ، اظلم وجهه ، أخذ يتلوى كأنه تلقى طعنة سكين فى معدته ، وظل يرتجف وهو مستغرق فى الضحك .

——————*

كان المارة فى هذا الوقت يعبرون عن سأمهم بالتجوال على غير هدى ، ولكن السأم يتراكم على وجوههم كطبقة من الغبار ، ويخفى كل ما عداه .

كان عددهم يزداد بالتدريج ، ففى هذا الوقت ، حوالى السادسة مساءً ، يغادر الناس بيوتهم ويتجمعون فى شوارع المدينة هربا من الحر ومن أقفاص الاسمنت ، يتبادلون السير فى اتجاهين متعاكسين ، جزء منهم يقبل من ميدان الشهداء فى اتجاه ميدان الجزائر ، ويقابله جزء آخر فى اتجاه مضاد، كان عدد النسوة أقل مما ينبغى ، ولذلك فقد كان ظهور فتاة أو إمرأة من ممر جانبى يلفت الانتباه بسرعة ، فتنهال التعليقات ، والصفير ، وصيحات

الاعجاب الخافتة من كل جانب ، كان اغلب ما يسمع تعليقات طائشة لا تواجه بأى رد فعل من جانب النساء ، كانت فتيات السراويل الضيقة هن الأكثر إثارة ، وفى كل خطوة كن يجلبن وراءهن ضجة غامضة تنطلق كزوبعة من الغبار ، وما أن يبتعد رمز الإثارة حتى تتلاشى الزوبعة ، ويعود كل شيء إلى حالته العادية ، وتتحول العيون نحو واجهات المتاجر الزجاجية .

كان أول من انتبه إلى وجود الرجل الذى يضحك وينتفض فى جنون هو صاحب كشك الصحف القريب ، دنا من الرجل بخطوات ضيقة ، يشده إلى الخلف إحساس بأنه يجب ألا يضيع وقته فى شيء تافه ، ولكنه لم يستطع أن يتغلب على فضوله ، دنا أكثر من الرجل الغريب الهيئة حتى كاد أن يحتك به ، ثم ما لبث أن تراجع إلى الوراء فى فزع ، ما هذا الذى يراه ويسمعه ؟ . .

الرجل يضحك بخشونة ، ويطلق عواءً حزيناً كعواء الكلاب الجائعة ، أهو يضحك أم يبكى ؟ الدموع تغسل وجهه ، وفوق شفتيه تتجمع رغوة كثيفة ، تجمد بائع الصحف فى مكانه وقد اتسعت عيناه رعبا ، ليس فى وسعه أن يفعل أى شيء ، بل إنه وقع فريسة لخواطر عجيبة .

لماذا لا يضحك هو الآخر بنفس الصورة ، يضحك ويبكى فى وقت واحد ، ثمة شيء فى أعماقه يتململ ، ويصرخ ، وينتفض ، يعتصر كل آلام حياته فى نوبة ضحك عنيفة ، تلتهم حطب حياته كالحريق ، إنه شيء رائع حقا أن يضحك الإنسان على هذا النحو ، فيبدو وكأنه يطحن الهواء ، لقد مرت سنوات طويلة منذ أن خاض تلك التجربة لآخر مرة ، إنه يتذكر ذلك فتبدو له الصورة شاحبة وبالية ، لقد نسى الوقت والمكان ، ولكنه لم ينس السعادة التى غمرته ، ولا الفرح الذى أضاء عينيه ، لم يعد فى امكانه الآن ان يركض خلف ذلك الزمن المفقود ، إنه يعيش فى زمن آخر ، يعطيك

كل شيء بسخاء إلا الضحك ، يمنحك المال والكوابيس ، ويضطرك إلى أن تضع على وجهك كل يوم قناعا جديدا ، أما الضحك فقد أصبح فى أيامنا هذه نادرا كالمرأة الزاخرة بالأنوثة والتى لا تتبدد حرارتها عند أول لمسة ،

لكم يود أن يضحك بعنف وجنون كهذا الرجل الغريب .

ولكن لماذا يتعذب وينتفض بينما هو منهمك فى الضحك كالأطفال كان بائع الصحف يلوح بيديه ، وافكاره فى الهواء ، ولم يدرك بينما هو يخوض معركة مع نفسه ، أنه أصبح جزءا صغيرا ضائعا فى الزحام الذى امتد فى دائرة كبيرة .

لم يكن هناك وجه واحد يختلف عن الآخر ، فقد اكتست كل الوجوه بتعبير واحد صدر عن غرابة الموقف وغموضه ، رغم أن غالبية الحشد لم تتمكن من معرفة ما يجرى فى الشارع ولا سبب الزحام ، فقد تعذر على الكثيرين رؤية الرجل الذى ما زال مستغرقا فى الضحك ، يمد يده فى الهواء ويرتجف بشدة ، تتساقط دموعه على الأرض ، وينتفض هيكله المتداعى من حين لآخر .

تختلط الأصوات وتنحسر ، وما تلبث أن تتمدد مرة أخرى

– ثمة رجل مبلل العينين بالدموع ، هذا كل ما أراه

– على أية حال . . إنه ليس الوحيد الذى يبكى فى هذه الدنيا

– لا . . إنه يضحك ولعله رجل مجنون .

– هل هو يضحك أم يبكى ؟

– لا أعرف . . ولكنه كالجرادة . .

اندفعت من الزحام إمرأة عجوز ، واتجهت صوب الرجل الغارق فى ضحكه ودموعه ، ظهره يتقوس حتى يكاد أن يلامس الأرض ، يدفع بيديه إلى أسفل ، يفرد قامته قليلا ، ولكنه يعود فينحنى مرة أخرى .

صاحت المرأة العجوز ملوحة بيديها فى احتجاج ،

عودوا إلى الوراء ، دعوه يحصل على شيء من الهواء ، ألم تشاهدوا فى حياتكم رجلا يضحك .

ما أشد تعاستكم جميعا

لم يتراجع احد إلى الخلف ،

وقفت المرأة العجوز فترة من الوقت تحدق فى الرجل ، وتتفحصه بعناية كأنها تتعرف عليه ، وفجأة استدارت وقذفت بكلمة بذيئة وشقت طريقها مبتعدة .

————*

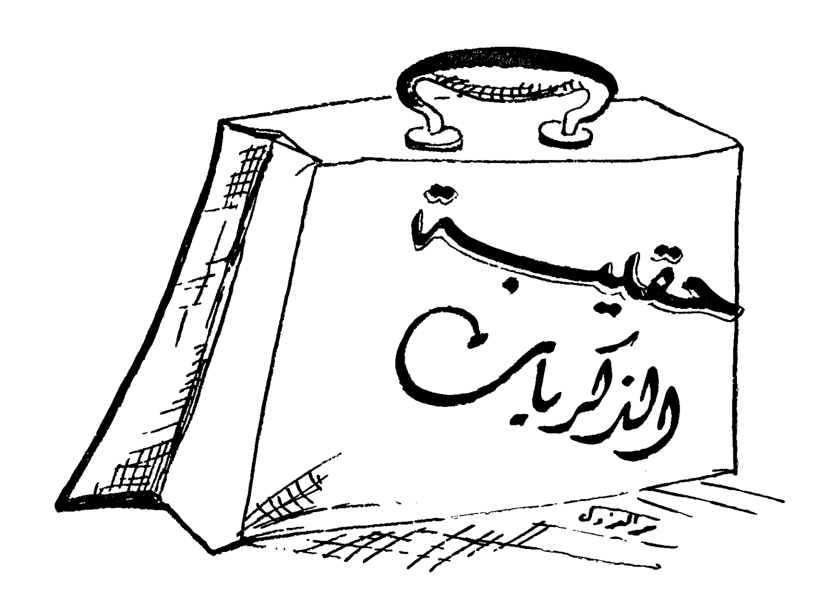
كما بدأت نوبة الضحك فجأة تلاشت فجأة ، عاد الرجل إلى هدوئه السابق ، وتبدت آثار الاجهاد واضحة على وجهه وعندما فرد قامته ونظر حوله ، بدت سترته أوسع مما كانت وأشبه بمعطف بلت أطرافه .

جفف الرجل عرقه ودموعه ، ومسح الرغوة المتجمعة عند زاويتى شفتيه الجافتين ، كان يتنفس بسرعة وبصوت مسموع ، حرك رأسه وتقدم بضع خطوات إلى حيث كان يقف على حافة الرصيف ، وعندما رفع رأسه فوجىء بذلك الحائط البشرى يحجب عنه الرؤية ويسد طريقه ، ولكنه

لم يأت بأية حركة تعبر عن استيائه ودهشته ، وكل ما هنالك أنه رفع بصره إلى ما فوق الزحام ، وفى هذه اللحظة تمكن من رؤية الشمس تنسحب ببطء وتطفو على حافة الشفق الذى اكتسى بلون أحمر .

استدار موليا ظهره للحشد الكبير ، دفع بقدميه إلى الإمام باتجاه ميدان الجزائر ، بدأ فى مشيته المتمهلة وكأن نصفه الأعلى قد وضع بشكل مائل فوق ساقيه الواهنتين ، وترك ليتمايل فى كل خطوة نحو الشمال ونحو اليمين قبل أن يختفى تماما فى شارع متفرع من ميدان الجزائر — اكتست ثيابه بذلك اللون الغامق الذى أخفته الشمس الغاربة على الشارع الطويل .




حقيبة
الذكريات

النهار حكاية قديمة ، الليل إمرأة عجوز تقبع فى الصمت مسودة الوجه ما بين الليل والنهار تولد نجمة ، وتموت نجمة ، البحر له قصة غريبة . . والناس لهم قصة أغرب .

هل من الأفضل أن يكتب عن صيد السمك أم عن هموم وأشواق إنسانية . . ؟

تمددت الخطوات المهملة ، والتصقت بحافة المقهى ، بالقرب من الباب ، تراجع إلى الوراء خطوة واحدة ، الذى يصل قبل الآخرين يحوز مكانا بحذاء الرصيف ، سحب كرسياً ، وبهدوء جلس ، من هنا تكون الرؤية أوضح ، أقرب ، ففى حالة مرور فتاة مثلا يمكنه أن يلامس بنظرة واحدة الصدر والساقين والشعر ، ملامسة متفحصة ونهمة ، متأملة وخائفة ، فقد تضيع الفكرة العظيمة التى اقتنصها من وسط الزحام بجهد شاق ، وبعد انتظار طويل ممل . .

طلب فنجانا من القهوة . . وجعل يفتش فى ذاكرته المجهدة عن بداية القصة . .

طوقه صوت عامل المقهى فى اعتذار أبله ، ورجاء مرتبك بأن يذكره بطلبه من جديد .

قهوة . . وكوب ماء بارد .

لم تسعفه ذاكرته بشيء ، احترقت الكلمات وتحولت إلى رماد اثناء الرحلة المتعبة من البيت إلى المقهى ، الرحلة من لا شيء . . إلى حيث كان اصراره شديدا على أن يقدم عملا فنياً يزهو به طوال حياته :

هز رأسه يحيى صديقاً . . تكاملت ملامحه الباهتة على الرصيف الآخر ، هز رأسه ، ورفع يده ، وجعل يلوح بها فى الهواء ، رفع صوته ، كيف حالك ؟ آه الحمد لله . . كل شيء على مايرام . . الأحياء والأموات بخير . . وأنت ماهى أخبارك . . تأكل وتنام . . وماذا تريد أكثر من ذلك ؟ أنا كما ترى أشرب قهوة مرة .

اختفى الرجل فى الزحام ولكنه لم يعبأ لذلك ، استغرقته اللعبة تماماً ، وفكر فى أن يصعد فوق المنضدة ، ويرفع يده ، ويصيح بأعلى صوته : أنا بخير . . ألا تصدقون ذلك ؟ هل تريدون أن أثبت لكم ذلك بأوراق رسمية . .

شعر باعياء ، وجاءت القهوة ، وقف عامل المقهى يتأمله فى دهشة ولكنه لم يبال به حتى انصرف وهو يهز رأسه ، اعترته نوبة من الضحك ، أطبق شفتيه ، الفكرة هى : لو قلت أن هذا الرجل مجنون فلن يصدقنى أحد ، حتى هذه الجدران الصماء ، لا أحد ، ستكون القصة جيدة ، ولكن هل يتسع تفكير الآخرين لكل هذه اللامات المكسورة المعلقة فوق الأرصفة ؟ . .

القهوة . . عليك أن تتناول قهوتك قبل أن تفقد حرارتها ، رفع الفنجان إلى فمه ، ثم أعاده بهدوء ، من الفراغ الذى امتد بين ذراعه ورأسه فى تلك اللحظة القصيرة — تولدت الفكرة مقدمة القصة كما صاغها فى عقله — وبترتيب دقيق دون أن تنقص كلمة واحدة .

ــ السلام عليكم ، يبدو عليك التعب والحزن . . ما الأمر ؟

صديق آخر ، أو لام مكسورة دفعت بها الريح إلى المقهى . . ترى هل يستطيع الاحتفاظ بالمقدمة حتى ينصرف ،

هل تذكر ؟ . . .

أجل فى وسعى أن اتذكر كل شيء الآن إلا المقدمة ، تتحدث عن الطفولة . . أنا أيضا كنت طفلا ، عن البؤس ، البؤس عشته لسنوات طويلة ، والأطرف أن علاقة مودة خالصة نشأت بينى وبينه ، كنت أنغمس فى فرح طارىء ليس له بداية ولا أصل ، وليس له معنى ، أكف عن الفرح حالما اتذكر البؤس الذى ينتظرنى ، أعرف أن بؤساً كالليل ينتظرنى ويتربص بى ، فى الوقت الذى تخلو فيه السماء من النجوم .

طالعته إبتسامة راكدة ، وضع يده فى اليد الممدودة ، حاول أن يتذكر أين ومتى رأى تلك الإبتسامة الراكدة ، أين يا ترى ؟ أخيرا أصبح لزاماً عليه أن يفتح حقيبة الذكريات ، يقرأ جرائدا وافكاراً قديمة ، ويتصفح وجوهاً قديمة أيضاً .

لم يفلح فى أن يتذكر شيئاً ، اقترب أكثر من وجوه الفتيات المسافرات فوق الرصيف ، الحالمات برصيف يلف حول الكرة الأرضية ، ورجال بحجم الكرة الأرضية أو أكبر قليلا .

لم تسافر إذن !ــ

حاول أن يتذكر للمرة العاشرة المكان الذى طردته منه تلك الابتسامة العتيقة لأول مرة ، ضرب جبينه بيده ، وطلب فنجانا آخر من القهوة ، احتساه فى دفعة واحدة ، فتح حقيبة الذكريات .

لا توجد فى الحقيبة صورة لذلك الرجل ، ولا ورقة تحمل عنوانه ، أو نوع وظيفته ، ومع ذلك فالرجل يعرفنى ،

ما زالت الابتسامة معلقة تدعوه إلى عناق حار

– قال : لم أسافر ولا أظن أن هذا يهمك كثيرا

– كل الناس يسافرون فى الصيف .

– هل تعرف لماذا ؟

– لا أعرف فهل أجبت على السؤال بنفسك ؟ .

ضيق الرجل عينيه ، النساء وما أدراك ما النساء ، الحياة والحب ، شىء آخر ، هناك من يسافر لرؤية الحيوانات فى حدائق الحيوان .

انصرف عن الرجل وحديثه التافه ، التقط الحقيبة وسحب منها جريدة قديمة ، وشرع يفتش عن صورة الرجل بين الصفحات المتآكلة ، الجريدة مزدحمة بالإعلانات والتفاهات ، رجل يقبع فى نصف صفحة يتحدث عن همته فى النهوض بالحركة العمرانية .

– لماذا لم تسافر ؟

سوف اقتلك – إن لم تنصرف فورا

سأكتب عنك قصة ، واجعلك تموت فى نهاية القصة ، رفع الحقيبة وسحب منها ورقة صغيرة ، لملم الرجل تفاهاته ورحل ، اختفى على مدى الخطوات المبعثرة ،

سأعفو عنه فى هذه المرة فالعفو عند المقدرة من شيم الكرم .

عاد إلى صمته وقلقه وأحلامه وعذابه ، يحملق فى فنجان القهوة الفارغ ،

يرسل نظراته بطول الرصيف على مدى البصر ، من كل اتجاه يمكن رؤية فتاة تسحب الرصيف من ورائها ، تجر الحياة من طرفها الغارق فى العتمة ، تقترب فتاة فى ثياب حمراء ، بلون الانبهار والحزن وبكاء الأطفال ، اللون المثير ، والجسد الممشوق يرسل لهباً يحرق ويدمى ، يقتل ويدمر ، مدنا وقلوبا وزمنا أحمق ، ثم يستدير فيلتهم مقدمة القصص الرديئة والجيدة .

تقترب الفتاة ، ويشع الضوء واللهب ، يتكىء على حافة المنضدة ويميل برأسه باتجاه الجسد الملتهب . ضاعت مقدمة القصة ، وها هو العالم القديم الذى تظن أنك هجرته إلى الأبد يحتويك مرة أخرى كالطوفان ، تتلاشى مقاومتك الضعيفة ، فى لحظة تنهار ، تنهض وتقاوم ، ويغشى عينيك الغبار الذى يثور من حولك ــ تحاصرك العيون ويبدأ التحقيق المرهق.

ــ ما الذى اتى بك إلى هنا ؟

حظ سيىء ، أطماع كريهة ، لا بد أنه حظ سيىء ، كنت على وشك أن تقضى عمرك فى المقهى من الذى جاء بك إلى هذا المكان وأنت تعرف خطواته وأشواكه . تبحث عن مواطن شريف تجعله بطلا لقصتك ، لم يكذب ولم يستغل ، لم تقل هذا وادعيت أن شدة الرياح افقدتك قدرتك على المقاومة .

ــ نعم كنت أكتب قصة فى المقهى .

ــ ثم ماذا حدث بعد ذلك ؟

ــ كتبت أربع صفحات .

ــ أربع صفحات فقط ، هل يعود هذا إلى قلة حصيلتك من الكلمات أم من النشاط والعزيمة ؟

– كل ثروتى كلمات ، أما النشاط ، ففى الصيف ينعدم كل نشاط . .

– ما الذى حصل بعد ذلك ؟

– أطرقت أفكر فى نهاية القصة فشعرت بثقل فى رأسى

– أكتب – شعر بثقل فى رأسه ! !

– أمرت بفنجان من القهوة .

– ضع خطا تحت كلمة « أمر » –

– استمر . .

– لم اسعف بنهاية معقولة ، وشعرت بالسأم يكتم على أنفاسى ثم جمعت أوراقى وكنت على وشك أن اغادر المقهى . .

– أكتب . . كان على وشك

– وضعت أوراقى فى حقيبة الذكريات .

– صف لنا هذه – الحقيبة بدقة .

– إنها ليست كبيرة ولا صغيرة وليس لها مفتاح ، أحد جانبيها أبيض والآخر أسود

ليست ثقيلة فهى لا تضم سوى أوراق قليلة ، وهى مصنوعة من جلد مبلل لا يجف ولا يحترق ، أحملها أينما ذهبت دون أن أعرف لماذا ؟

– هل يمكن أن نطلع على محتويات الحقيبة ؟

دس الرجل يده فى الحقيبة وسحب منها صورة فتاة .

ضامرة الوجه ، حزينة العينين .

– صورة من هذه ؟

– الفتاة التى أحبها . .

تحب سلسلة من العظام ، تحب الحزن والجوع ، تحب العينين المسافرتين في فراغ لا نهائى ، تحب الموت .

هذا لا يهمك فى شيء يا سيدى ، اننى حر فى اختيار الأشياء التى أحبها ، حتى ولو كانت فتاة من ورق ولها رائحة عطنة ، هذه حياتى فهل عندك أشياء أفضل . . .

فتاة أفضل . . عاقلة ومتزنة وجميلة ومكتنزة و . . .

— انك تحبها فعلا . . .

سوف أصرخ ، احتل العالم بالصراخ ، أحارب الفقر وموت القلب بالصراخ ، سوف أجعل من الصراخ مشنقة .

أريد بيتا له حديقة ، وفتاة تحبنى ، وبحرا بلا أسماك مخيفة ، وسماء بلا دخان ، أقول أريد ، ولكن الدنيا لا تريد ، فلماذا كل هذه الأسئلة ؟

— لا تغضب ، الغضب يقتل فى الإنسان أجمل ما فيه .

— إننى آمرك وانذرك .

— جمع الرجل أوراقه وغادر المقهى .

لم تسعفه ذاكرته بمقدمة القصة ، ملأ أربع صفحات أما الصفحة التى خصصت للمقدمة فهى ما زالت بيضاء قصة بلا مقدمة قصة رديئة بلا شك ، بل لا يمكن اعتبارها قصة أبدا .

شرع الكاتب ينقب مرة أخرى فى حقيبة الذكريات ، سحب جريدة قديمة مطوية ورماها فوق المنضدة ، قلم حبر ، علبة كبريت ، ديوان (عيون الكلاب الميتة) علبة تبغ ، رسم لشجرة بلا أوراق .

ألقى بالحقيبة فوق الأرض ، وشرع يضحك ، توقف عن الضحك ، أطرق برأسه أو راح يفرك أصابعه بشدة .

– سؤال واحد يا أستاذ . . لو سمحت ؟

تأمل هذا الوجه الموسوم بالرعب ، هل يشبه أى وجه تعرفه ؟ لحية صغيرة ، ووجه ضامر جاف ، ومتشقق الجلد ، تحت الحاجبين تنبثق نظرة ذاهلة – تحوم فى الفراغ .

رؤية الوجه لأول مرة تنبئك أن صاحبه ظل يبكى من يوم أن ولدته أمه إلى الآن ، ولا يبدو عليه أنه سيكف عن البكاء .

– من أنت ؟ اننى لا اتذكر ملامحك . . وأكاد أجزم أننا لم نلتق قبل هذه اللحظة .

أجاب الرجل بصوت ثقيل :

– اننى بطل القصة ، مت فى ليلة شتاء قاسية ، ولم أجد من يتطوع بحملى إلى المقبرة ، تعبت من الرقاد على ظهرى ، والانتظار بلا جدوى ، فقمت اتجول فى الشوارع بلا هدف ، عندما رأيتك خيل إلى اننى أعرفك . . ولكننى لا أذكر أين رأيت وجهك لأول مرة .

– ما هو السؤال الذى يقلقك ؟

– ألا توجد عربة مجانية لنقل الموتى ؟

أظن أن هناك عربة تابعة للبلدية . . ولكن لا تشغل نفسك بهذا الموضوع ، سأشيعك إلى المقبرة بنفسى ، فهى تطل على الشارع الذى أسكنه .
انطلق موكب الجنازة الغريب من المقهى ، كان الميت يسير فى المقدمة ، وتبعه الكاتب منكس الرأس ، يحمل فى يده حقيبة الذكريات .

وما لبث الموكب الصغير أن اختفى فى أحد المنعطفات .

حسني يوسف اللموشي

الحريق

اشتعل حريق فى جسد عبد الفتاح ، على غير انتظار ، التهبت عروقه ، ونزفت عيناه دعوما بلون الدم ، حدث ذلك ذات ليلة صيف حارة ، وبينما انهمك عبد الفتاح العامل فى شركة الأدوية فى محاولة اطفاء الحريق الذى شب فى دمه ، كان ينصت فى نفس الوقت إلى مقطع من أغنية دأبت البنات على ترديدها فى الشارع .

– يا عبد الفتاح وين ضيعت المفتاح ؟

يدير عبد الفتاح رأسه فى أرجاء حجرته العارية ، ويخيل إليه فى كل وقت أن الجدران تزحف نحوه – غير عابئة بصراخه ورعبه ، تزحف نحوه وتسحق عظامه .

تذكر عبد الفتاح بغتة اليوم الذى تعرف فيه على رائحة المرأة ، كان طفلا نزقا يهوى اصطياد الذباب ، وفى إحدى المرات هوت كف خشنة على وجهه ، بكى عبد الفتاح بحرقة ، ثم جفف دموعه ، وطار نحو المرأة التى استدعته لينام فى سريرها – ويؤنس وحدتها أثناء غياب زوجها فى عمله الليلى ، هرع نحو السرير وارتمى فوقه ، التصق بالجدار ولم يلبث أن غرق فى النوم .

فى البداية خيل إليه أنه يحلم ، من جانب يصده الجدار ، ومن الجانب الآخر يلتصق به جسد المرأة فى عنف ، يتراجع إلى الخلف فيصده الجدار .

حرارة غريبة انتشرت فى أعضاء جسده الغض ، جعل يحرك ساقيه

ويتململ ، يحاول أن يدفع بالجدار إلى الوراء ولكنه فى كل مرة كان يصاب بخيبة أمل .

ضاعت كل التفاصيل الدقيقة بمرور الوقت ، ولم يبق سوى الفعل ورد الفعل فى صورة غائمة ، رد الفعل الذى جعل عبد الفتاح يتصبب عرقاً ، ويقضى يوماً كاملا مستلقياً على السرير بلا حراك .

يطوف حول المشهد ، ويحاول أن يتذكر ، الرعشة التى هزت جسده لم تدم فترة طويلة .

ومنذ ذلك اليوم أقلع عبد الفتاح عن لعبة اصطياد الذباب ولكن المرأة أبت أن تدعوه مرة أخرى إلى الفراش فلم يتغيب الزوج منذ تلك الليلة .

لولا الحريق الذى شب فى جسده فجأة لافلح فى تذكر كل التفاصيل ، ولكن الحريق أنساه كل شيء ، نهض عبد الفتاح وخلع ثيابه وغمرها فى الماء ، خلع جلده وعلقه فوق الجدار ، قبع فى ركن الحجرة يفك عظام جسده على مهل ، لقد اسودت العظام من أثر الحريق ، راح يعيد تنظيف عظامه وكأنه يتسلى بلعبة لا تخصه ، ثمة أغنية حزينة تطرق أذنيه ، الأغنية تشكو فى لوعة من حياة تتغذى على دم الإنسان .

فى الصباح تذكر عبد الفتاح الحريق ، قفز من السرير وفى فمه طعم الدخان ، تذكر الحريق وكأنه حلم مفزع تحسس عظامه وكساها بالجلد ، سحب من دولاب قديم بدلة سوداء داكنه اللون ومغطاة بطبقة من الغبار ، بحث عن ربطة عنق وقميص نظيفين ، وقف فى مواجهة المرآة يتأمل هيئته الجديدة ، ضحك عبد الفتاح جذلا ، ها هو يبدو لنفسه أكثر أناقة من أولئك الرجال الذين يتفرج عليهم فى السينما — يدعبون البنات بالجملة ،

ويتجولون بعربات فارهة ، والقاعدة هى أن صاحب العربة لا بد أن يفوز بصيد ثمين . إنه حقاً لا يملك عربة ، ولكن اناقته وسمرة وجهه الداكنة ترشحه للفوز بواحدة من تلك القطط المكتنزة التى لا تكف عن المواء .

تذكر عبد الفتاح عند العتبة أنه لم يعد ينقصه شيء سوى أن يعيد إلى حذائه برايقه المنطفيء ، غسله بالماء ، قطب حاجبيه وغرق فى كآبة شديدة لأن الحذاء لم يسترد لمعانه وبريقه .

لوح بيديه فى استياء ، خرج إلى الشارع وحث خطاه ، أخذ يمشى على مهل مبدياً أناقته لكل من يقابله ، اتجه إلى الشارع الذى يؤدى الى ذلك البيت الذى تعود أن يمر به كل يوم ويبطيء من سرعته عندما يقترب منه ، يبطيء من سرعته ، ويرفع عينيه نحو نافذة ذات شباك حديدى ، البيت قديم ، والشارع مترب مزدحم بالأطفال الحفاة ، يقول عبد الفتاح فى نفسه ان ذلك غير مهم ، فما أن يطالعه وجه الفتاة من خلف الشباك الحديدى حتى ينسى كل شيء ، تطرق عيناه ويغمره عرق بارد ، الإبتسامة الغامضة لا تتغير ، ويهمس عبد الفتاح بشيء ما ، فتتسع الإبتسامة الغامضة ، يدق قلبه ، ولكن لماذا تصر على ألا تبادله كلمة واحدة ؟ عشر سنوات وهو يمر بنفس المشهد كل يوم ، تنهال الثروة على الناس فجأة فيصيبهم الجنون ، ويتسابقون لإقتناء العربات الفاخرة فتتحول المدينة بين يوم وليلة إلى ميدان مصارعة دائب الحركة والنشاط ، فها هى الثيران الحديدية تتقافز فى الهواء ، فى هياج شديد ، تزدحم المدينة بدكاكين العطور ويزداد عدد المطاعم ، ويظل الشباك الحديدى كما هو ، يصدأ فيسرع صاحب البيت ويعيد دهنه ، الصراع بين الدهان والصدأ مستمر — ولكن القضبان هى القضبان .

يا عبد الفتاح وين ضيعت المفتاح ؟

فى أحد الأيام اقترب عبد الفتاح من النافذة ، ورفع رأسه فطالعته الابتسامة الغامضة ، همس عبد الفتاح بشيء لم يعد يذكره ، ولكنه تبين على الفور أن ما قاله كان مثيرا للسخط والغضب ، فقد ألقت الفتاة على رأسه بسلة من السباب تقبلها راضياً ومندهشاً ، وفر مسرعا لا يلوى على شىء هذه المرة لن يقف تحت النافذة ، ولن يهمس بشيء ، سوف يتجه نحو الباب مباشرة ، ضحك وقال : هل تعرف هذه الفتاة المعذبة أن الأرض كروية الشكل وأن . . .

كف عبد الفتاح عن التلفت ، والتحديق فى كل فتاة يمر بها ، وقد راعه أن يبطىء فى سيره فى الوقت الذى يسرع فيه الآخرون دون أن يكونوا مقبلين على مهمة خطيرة كمهمته ، إنه أحوج إلى السرعة ، ففى هذا اليوم سوف يتقرر مصيره ، ويتخلص من رائحة الحريق إلى الأبد .

انعطف نحو شارع ضيق ، وأخذ يحملق فى الأبواب وواجهات البيوت المتشابهة ، ثمة جدار واحد تتخلله حفر مستطيلة سدت بقطع من خشب متآكل ، اتجه نحو البيت الذى يقع فى طرف الشارع ، طرق الباب المتصدع ، أصر الباب متراجعاً إلى الداخل ، فأصر قلب عبد الفتاح أيضاً .

دلف إلى السقيفة ، ونظر فيما حوله مستطلعاً ، وما لبث أن غاص حتى أذنيه فى ترحيبات صاحب البيت وتحياته الحارة ، غاص ثم عاد يطفو ببطء بعد أن نفذت كلمات الترحيب ، ورفع صاحب البيت رأسه داعيا عبد الفتاح إلى أن يأخذ دوره فى الكلام .

قال عبد الفتاح حين احتوته حجرة عارية ليس بها سوى حصيرة قديمة .

— أنت تعرف يا سيدى أن الزواج نصف الدين . . .

قال العجوز مقاطعا :

ـ على الرحب والسعة . . أنت رجل

قال عبد الفتاح

ـ أعرف أننى رجل

استطرد العجوز :

ـ على بركة الله يا بنى ، لقد خمنت غرضك فى البداية . ضحك عبد الفتاح طربا ضحكة ظل صداها يتردد فى أذنيه أعواماً طويلة .

——————*

غادر عبد الفتاح البيت القديم شبه عار ، وقد احتضن تحت ذراعه فتاة ضئيلة ناحلة ، مصفرة الوجه ، ومضى من فوره إلى بيته مبتهجاً وخجلا ، وقال فى نفسه وهو يجر خطاه فوق التراب : انه فى وسعه أن يشترى بدلة أخرى ، وساعة ، وربطة عنق ، وحذاء ، ولكن من أين للمرء أن يحصل على جوهرة كهذه ، وتحسس الوجه المصفر برقة .

حظ لا يتكرر فى حياة الإنسان مرتين .

وعلى طول الطريق جعل عبد الفتاح يزمجر فى وجه كل من ينظر إلى قدميه الحافيتين وفتاته التى تشبه الدمية المهملة .

إنهم يحسدونه على حسن حظه .

فى المنزل زأر عبد الفتاح بقوة وحدة ، بدأ يجرب الرقص ، كف عن الرقص والزئير ، ألقى بفتاته فوق السرير ، خلع ملابسه ، زأر وهو يقفز فى الهواء ويرتمى بجانب زوجته .

توقف عن الزئير وشرع يغنى ،

ومضى يغنى حتى أنجز مهمته الخطيرة بنجاح ، برزت عروق وجهه وغمره عرق بارد .

غادر السرير ، وقبع فى ركن الحجرة ، عاد للغناء بصوت خافت ، وراقه ان يعيد لنفسه فى صورة دقيقة ما وقع بينه وبين فتاته منذ قليل ، وتجلت أمامه ذكرى مبيته مع إمرأة لأول مرة فى حياته وهو ما زال طفلا صغيرا ، تواردت التفاصيل بكل أسرارها وحرارتها ، وخطر له أن ينادى على زوجته ولكنه تعجب لأنه لم يتعرف على اسم زوجته حتّى هذه اللحظة دنا من السرير ، الجسد الضئيل المنهك ينكمش فوق الفراش بلا حركة ، انحنى وقال شيئا ضحك له وحده ، رفع صوته ، تحول الهمس إلى صراخ ، هز الجسد المنكمش بكلتا يديه فى جنون ، التفت ناحية الجدار ، غص بحزنه ودموعه .

ليس من المعقول أن تكون قد لفظت انفاسها الأخيرة وفارقت الحياة . ماتت قبل أن يعرف اسمها .

————*

فيما بعد أخذ عبد الفتاح يطوف بالشوارع والمقاهى ، يتوقف عند أبواب المتاجر ، يمشى فى ظل الأشجار ، يرفع رأسه نحو السماء ، يعبر الزحام ، ويلف حول الميادين ، يرفع قدما وينزل أخرى ، يقطع بضع خطوات إلى الأمام ويتوقف .

يسأل عبد الفتاح كل من يصادفه عن دواء يمنع انبعاث الرائحة الثقيلة من الجسد المتحلل ، يقفز كالأرانب ، يبتعد ولا يعبأ بسماع الإجابة . يصرخ :

– الحريق . . الموت . . ا

يتوقف رجل ويشير نحو كومة من الثياب الرثة والشعر الطويل المتسخ والقدمين الحافيتين ويقول :

– اسمه عبد الفتاح . . كان شابا ، كان رجلا ، كان اسمه عبد الفتاح . . كان إنسانا . كان . . .




موكب
الصراخ والمطر

عندما أدركه الهرم ، وأيقن أن المسافة بينه وبين القبر تتقلص بسرعة كضوء الشمس ساعة االغروب وأن أمر انسحابه من فوق الأرض قد يصدر في أية لحظة ، لقد قرر أمرا مستعجلا ، تكلم بلهجة صارمة وقاطعة ، جعلها صارمة وقاطعة ماوسعه ذلك ، وطلب حضور زوج ابنته الكبرى .

قال بصوت واضح :

ـ أريد أن أتزوج فورا .

انحنى صهره بين يديه بقامته الطويلة ودمدم :

ـ لا تشغل نفسك بشيء ، ثمة عجوز أرملة تقيم بجوارنا . . وسوف . .

فى استياء بالغ قاطع الحاج زوج ابنته :

ـ قلت عجوز وأرملة ، عجوز يغلف عظامها جلد خشن ومجعد كالورق الرديء ، عجوز نصف ميتة ، أرملة مقطوعة من شجرة ، لها قلب من تراب .

انحنى الرجل ودمدم مرة أخرى :

ـ نعم يا صهرى العزيز فأنت تستحق كل الخير

فرد الحاج سبابته فى وجه الرجل المنحنى وقال :

ـ هل تعلم يا زوج ابنتى الكبرى كم يبلغ رصيدى فى المصرف ؟

ـ لا أعرف بالضبط ولكنه حسب علمى مبلغ كبير .

– كبير جدا يا مغفل .

ضحك الحاج وتنحنح :

– مبلغ أكبر من رأسك أيها المسكين :

– قلت أرملة وعجوز . . وماذا ؟

انحنى للمرة الثالثة

– وطيبة القلب كالعصفور

– تغنى كالبومة . . .

– ليس ثمة فرق كبير ، وهى تملك ميزة أخرى فهى تجلس ساعات طويلة فى صمت كقطعة ممن الحجر

حملق الحاج فى وجه زوج ابنته فترة طويلة ثم صاح :

– لو لم تكن زوج ابنتى الكبرى كنت قتلتك ورميت بلحمك للكلاب .

------*

انقضت ليلة حارة بائسة ، وتلاها صباح رطب ، مشبع بالغبار ، فى الليل ولج الحاج حجرة زوجته الجديدة ، فوجدها مكومة فى الفراش فى ثياب شفافة ، بدأ الليل ينتحب ولكن الحاج لم ينتبه إلى ذلك ، كانت الفتاة جميلة وشهية ، لها بشرة بيضاء وشعر طويل ناعم ، أنفها صغير ، وعيناها سوداوان ، إنها صغيرة السن وفاتنة ، تحلم بالفئران ، تخاف من الفئران التى تهاجمها فى الحلم وتقرض أصابعها الرقيقة ، وأخيرا أخذت الفئران تهاجمها فى وضح النهار .

فى ذلك الصباح الشاحب الضوء خرجت الفتاة للناس شبه عارية تنعى للدنيا وفاة حاجها المعتوه .

قال لها زوج البنت الكبرى وهو يربت على ظهرها

– كان يجب ان تمنعيه وتقنعيه بأن ذلك يضر بصحته .

تذكر التركة فمسح وجهه بكفه وأطبق فمه .

أعقب الرغبة والفرح وحديث التركة يوم ممطر ، طفا النعش فوق دموع النساء ، ثم وضع فوق عربة يجرها حمار هزيل ، مشى خلف الجنازة كل سكان الحى ، الأغنياء والفقراء ، لم يبق أحد حتى الرياح كانت تعبر الشارع وتلف حول الموكب المهيب ،

فى المقدمة ، خلف النعش مباشرة اصطف عدد من الشيوخ بلحى بيضاء ، تلتف حول رؤوسهم عمائم كبيرة ناصعة البياض ، وفى الوسط تراكم حشد من رجال يغطون رؤوسهم بطواق حمراء ، أما فى المؤخرة فقد تزاحم عدد كبير من الناس فى ثياب رثة .

تردد دعوات غامضة في وقار وعلى وتيرة واحدة ،

كانت المقبرة بعيدة ، والطريق المؤدى إليها مقفرة ، لا يمر به أحد إلا فى المناسبات ، كان الموكب يشق طريقه نحو المقبرة ، ولم يهتم أحد بالسحاب الذى غطى السماء مقبلا من ناحية البحر .

أبى الحمار أن يسرع رغم الإلحاح ، كان يمشى ببطء وفى إثره يتحرك الموكب الكبير ، فجأة أخذ المطر يتساقط ، لاح الطريق طويلا وبلا نهاية ، ابتلت ثيابنا ، عطس رجل ثم آخر ، فى البداية كنا صامتين ، ثم شرعنا نتحدث فى كل شىء ، كان الحمار يتقدم فى بطء شديد ويهز أذنيه بين حين وآخر ، وأخيرا توقف وراح ينظر إلى السماء ويهز أذنيه الكبيرتين .

رفض الحمار أن يتقدم خطوة أخرى ، واتهم من طرف بعض المشيعين

بأنه حمار عنيد ويجب قتله ، تقدم رجل وركله على بطنه ، رفس الحمار الأرض بقدميه وكأنه يؤكد بذلك ما صمم عليه .

تضاعف عدد الركلات بلا جدوى

صاح أحد الرجال محتجا :

— لا تضربوه ، إنه حيوان مثلكم — ليس أفضل منكم ولكنه حيوان يتألم ويتعذب فارحموه .

تصدى له عدد من الرجال وقالوا ان الذى يدافع عنه حمار لابد أن يكون حماراً مثله .

انبثق اللغط من كل جانب ، ونشب شجار عنيف ، وقف الحمار يتابع الشجار ويهز ذيله ، ووقفت أنا الآخر اتفرج بلا مبالاة فالأمر لا يهمنى فأنا لست حاجاً ولا عجوزاً ، ولم اتزوج فتاة فى السابعة عشرة من عمرها.

الصراخ يتعالى ويذوب فى المطر ، أسرع وفد من المشيعين لاخطار الشرطة ، وفى هذا الوقت كان لا بد ان يهزم أحد الطرفين الطرف الآخر ، حمى الشجار واتسع وشمل أعداداً أخرى ، وعند ذلك استأنف الحمار سيره البطىء فى طريق المقبرة ، أخذ الحمار يبتعد بمفرده حتى استمال فى النهاية إلى نقطة سوداء متحركة ، لم يلحق به أحد ، فقد حتم الموقف حسم المعركة أولا ، اختفت النقطة السوداء ، ولم يبق لها أى أثر ، أين ذهب الحمار بجثمان الحاج ،

اختفى الحمار ومعه ضاعت جثة الحاج .

عدت مسرعا أكاد أطير من الغبطة ، لقد تركت حبيبتى تنتظر نى عند ناصية الشارع — لا بد أنها قلقة لاننى أطلت غيابى عنها ، سنعود نلف

الشوارع ونجمع أوراق الأشجار المتساقطة ، هذه هى لعبتنا المفضلة فى فصل الخريف ، كنا نقوم بهذه المهمة كل يوم ، وكان كل من يمر بنا يسألنا مندهشا : وما فائدة ذلك ؟ كان الخريف يعود كل عام ويزرع أوراقه الذابلة فى كل مكان ..

ذات مرة سألت رجلا عجوزا عن شيء آخر ألعبه مع حبيبتى غير لعبة الأوراق الصفراء ، انحنى على أذنى وهمس بكلمات غريبة جعلت الدماء الحارة تصعد إلى وجهى .

جربت اللعبة الجديدة فوجدتها سهلة وممتعة وكنت مغتبطاً بها ، وذات مرة حط غراب عجوز أمام منزل حبيبتى ، ومنذ ذلك اليوم اختفت حبيبتى هجرتنى تماما ، وانتقلت لتعيش مع غراب قبيح ، صرت ألعنها وأنا أقذف التراب فى وجوه المارة .

————*

رحل الحاج الى رحمة الله

وعادت مريم . .

وجاء الخريف ، وتوقف عند رأس الشارع ينثر أوراق الأشجار الذابلة.

شيء ما تغير فى مريم فقد رفضت أن تجمع الأوراق المتساقطة .

مريم أصبحت إمرأة .

————*

لمريم حبيبتى رويت قصتى مع الحاج ، فشهقت بعنف ، كان ذلك منذ زمن طويل ، كان الهواء يملأ جيوبى . . وكان ثلاثة أرباع سكان المدينة يعيشون من السرقة والدعوات الصالحة .

لم يسرق من الحاج شيء أقسم هو بذلك وقال : لم أفقد شيئا حتى ولا إبـرة .

كل ما ورثه عن صف من الاجداد الأثرياء كان يتراكم ويتضاعف سنة بعد أخرى ، حتى انه فى النهاية لم يعد فى وسعه أن يحصى ثروته ، كانت التنهدات والآلام ، وعرق رجال مجهولين تختلط بالعقارات والأموال والمزارع ، وكانت الأسلاك الشائكة تمتد فى كل اتجاه .

جئت الى بيت الحاج ابحث عن عمل ، نظر الحاج إلى وجهى الشاحب وقال لا بد من التجربة . . كلفنى بحمل حجر من مكان إلى آخر .
اقتربت من الحجر فشعرت بدوار شديد ، كنت جائعا ، دارت بى الأرض فأخذت أترنح ، عندما حاولت أن أرفع الحجر دارت بى الأرض فسقطت على وجهى ، طردنى الحاج على الفور وقال :

انى لا اصلح لشيء .

استمر البحث عن جثة الحاج زمناً طويلا ، وقال زوج البنت الكبرى ان إيجاد الجثة ودفنها شرط أساسى لتقسيم التركة ، شمل البحث كل المنطقة المحيطة بالحى ، واتسع حتى شمل الأحياء البعيدة ، ولم تسفر كل الجهود المضنية عن شيء ، حتى ان بعض الناس اشاعوا أن الشيطان هو الذى سرق جثة الحاج .

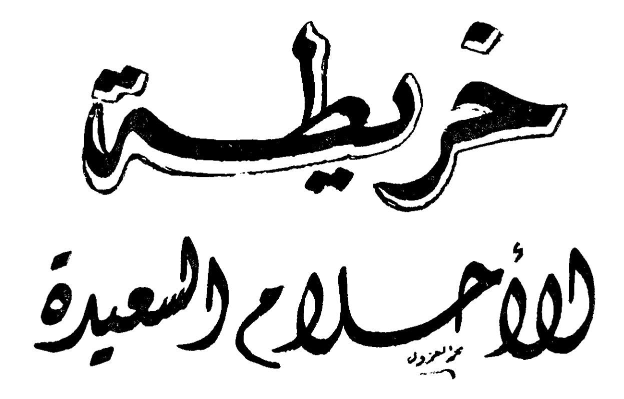
عاد الحمار ذات يوم بمفرده ، وقد بدا عليه الجوع والهزال ، امسكوه وارادوا ان يحققوا معه فلم يظفروا بنتيجة ، ضربوه بفأس وشقوا رأسه ، وبقيت التركة بلا توزيع .

قتل الحمار وبكت مريم بحرقة ، حملنا الحمار إلى مكان بعيد ودفناه ، وفى طريق العودة تزوجت من حبيبتى وجعلت أجفف من دموعها بطرف قميصى . كان الوقت خريفاً وكانت اوراقا كثيرة متساقطة .

————*

وما زال زوج ابنة الحاج الكبرى يطوف بالشوارع والأحياء بحثاً عن الجثة حتى يحصل على نصيبه فى الميراث .




خريطة
الأحلام السعيدة

يتوقف ظل شاحب عند حافة النافذة المنخفضة ، ولا يلبث أن يسترد قواه ، فيعاود صعوده البطيء ، الرحلة مكررة وسقيمة ، فهى بلا نهاية وبلا جدوى ، فما أن يتقدم الظل قليلا إلى أعلى حتى يختفى .

سحب عينيه المتعبتين من النافذة ، وعاد يقلب صفحات الملف الذى فتحه منذ دقائق ، المبنى الكبير يغرق فى سكون شامل عميق ، انصرف كل الموظفين كالعادة قبل الموعد بربع ساعة ، والمدير أول من ينصرف ، أما هو فيصر على البقاء حتى الدقيقة الأخيرة — يحملق فى النافذة متأملا حركة الظل التى لا معنى لها ، إنه يدرك أن بقاءه فى مكتبه حتى اللحظة الأخيرة ليس بدافع الحرص على المصلحة العامة ، فكما كان الظل يتلاشى عند حافة النافذة كان هو بدوره يتساءل عن معنى عودته إلى بيته .

أزف موعد الإنصراف ، أدرك ذلك دون أن ينظر إلى ساعته ، فالظل هو المؤشر اليومى إلى تلك النهاية ، نهض لينصرف ، التقط نظارته من فوق المكتب ، ووضعها على عينيه ، أشعل لفافة ، كوم شفتيه على شكل دائرة صغيرة ، ونفخ الدخان فى الهواء ، وظل يراقبه وهو يتبدد ، ألقى نظرة أخيرة على الظل ، ثم استدار نحو الباب ، ما أشبه حياته بحركة الظل ، يصعد ثم يتلاشى ، إنه يمثل نفس المهزلة منذ خمسة عشر عاماً ، يأتى إلى مكتبه ، وفى موعد لا يتغير ينصرف كالظل فى صمت .

جرجر أقدامه وتنهد فى ضيق ، إنه يشعر بتعب شديد وكأنه يحمل الكرة الأرضية فوق ظهره ، لم يبق إلا خطوة وينهار ، لماذا كل هذا التعب ،

وظيفته سهلة ومريحة الى حد المرض ، فما عليه إلا أن يمسك بالقلم ويكتب « مرحوم » أو بمعنى آخر – يخط عبارة « انتقل إلى رحمة الله » على أغلفة الملفات التي ترد إلى مكتبه كل صباح . . ولا يبقى بعد ذلك ما يشغله سوى الفراغ والضجر .

يهبط الدرج على مهل ، ويتوقف أمام مبنى المصلحة ، ينظر إلى الطريق ، ويتفحص وجوه المارة ، ويتفرس في ملامحهم ، من من هؤلاء الذين تزدحم بهم الأرصفة يعيش نفس حالته؟ ، يأتي ويذهب كالظل ،ويشاركه من ثم في حمل الكرة الأرضية ، إنه يرى نفس المسرحية الهزلية التي تمثل كل يوم ، لا جديد إلا أن السماء تصفو أحيانا فتلوح شفافه كالماء ، أو هي تتغطى بسحب بيضاء خفيفة كالريش ، ومرة أخرى تهب رياح حارة محملة بالأتربة تلف الشوارع ، وتتخبط في الميادين ، المارة يلفون حول المدينة ثم يعودون إلى نفس النقطة ، العربات تسير وتتوقف وتصطدم ببعضها البعض المدينة مسرح كبير وهو متفرج وحيد ويعاني من السأم ، المسرحية تافهة ورتيبة ، كل الوجوه تلوح مقطبة وعابسة – كل يوم تعرض نفس المسرحية ، الشبع ثم الغثيان ، الإنبهار ثم التعود ، الضجة ثم لا شيء .

انتهز فرصة خلو الشارع من السيارات، فهرول نحو الرصيف الآخر ، وقبل أن يبدأ خطواته الثقيلة التي تقوده إلى منزله ، حلقت فكرة في رأسه كطائر في حالة فزع .

لا بد أن شخصا مجهولا تسلل إلى مكتبه ، في غيابه ، وكتب فوق ملفه كلمة « مرحوم » بخط عريض ، كيف لم ينتبه إلى ذلك من قبل .

هذه هي كل الحقيقة ، بكل بساطة ، ترتسم أمام عينيه في هذه اللحظة « لقد مات » وانتهى الأمر ، منذ اليوم الأول الذى تسلم فيه وظيفته ، إنه

ما زال يذكر ذلك اليوم بكل تفاصيله ومفارقاته ، دون أن يفلت منه خيط واحد ، جاء مبكراً ، وصعد الدرج قفزاً ، وفى يده خريطة أحلامه السعيدة، الخريطة التى ما زالت نظيفة وخالية من الخطوط والنقط والدوائر والأسهم .

كان قد تخرج لتوه من الجامعة ، تضيق الدنيا بحيويته وطموحاته ، تنفس بعمق قبل ان يصعد الدرج ، وابتسم لنفسه ، هذا المبنى الكبير سوف يضيق بنشاطه ومشاريعه ، فلتكن إذن بداية متواضعة وصغيرة نحو رحلة حافلة بالعمل والانتاج وحافلة بالنجاح ، والآمال الصعبة ، والمجد .

قال له المدير بعد ان تسلم منه خريطة أحلامة السعيدة :

ـــ اخترنا لك وظيفة سهلة ، فكل ما هو مطلوب منك كتابة كلمة « مرحوم » على الملفات التى ترسل إليك . وظيفة مريحة وبلا تعقيد ، فما رأيك ؟ . .

أضاف المدير وهو يضحك :

ـــ أرى أن تكتب نفس الكلمة فى رأس الصفحات الأخرى زيادة فى الدقة ، فربما ـــ لا سمح الله ـــ عاد أحدهم إلى الحياة وطالب بالترقية وروانبه المتاخرة .

لم يضحك ، وجعل ينظر إلى المدير فى دهشة ، لم يخطر بباله أن ثمة وظائف من هذا النوع ، وظائف تثير الضحك والحزن فى نفس الإنسان ، وأنه قد كتب عليه أن يبدأ عمله حيث ينفض الآخرون أيديهم من العمل ومن الحياة معا ، ما معنى أن يتربص بأقدار عباد الله ـــ كل صباح ، ويخط على ملفات خدمتهم تلك الكلمة البائسة ؟ . .

ألف مرة فكر فى أن يهرب ، ويترك وظيفته اللعينة ، يهرب إلى النسيان وإلى عمل يشد من عزيمته ويؤجج طموحه ، ولكنه كان يتردد ،

ويؤجل تنفيذ فكرته يوماً بعد آخر ، وبمرور الوقت نسى كل شيء ، وأصبح بحكم العادة يرسم الحروف الخمسة ، ولا يهتم بقراءة اسم صاحب الملف ، ثم يلقى به على طرف المنضدة ، ويسحب ملفا آخر فى آلية ، وأخيراً ينصرف فيما يتبقى من وقت حتى موعد الإنصراف – إلى مراقبة حركة حركة الظل على الجدار .

حث خطاه ، وبعد بضع خطوات توقف ، وأشعل لفافة ، وتعجب من طعم الدخان المر ، لم يتغير نوع اللفافات ولكنها الآن تكتسب مرارة غريبة ، نفث الدخان وواصل سيره ، رفع رأسه ومد بصره إلى الأمام ، بعد مسافة قليلة سوف يصل إلى المقهى ، ويحتل مكانه بين مجموعة من أصدقائه القدامى ، يجلس فى صمت يستمع إلى أحاديثهم المكررة عن الغلاء وأزمة السكن وعدم زيادة الرواتب ، وكالعادة يحتد النقاش ، وينقسم المتنافسون فى الثرثرة إلى فريقين متنازعين ، أما هو فسوف يكتفى بالإنصات وهز رأسه ، يوافق كل طرف على رأيه ، ولا يشغل نفسه بالتفكير فى معرفة أى الطرفين على حق ، لن ينبس بكلمة واحدة ، لا فائدة من ذلك ، فلا أحد يهتم برأيه أو بمناقشة هذا الرأى ، إن كلمة « مرحوم » تنتصب أمام عينيه كالجدار الصلب الشاهق الذى لا يستطيع تسلقه أو القفز فوقه .

يوم أمس حدث نفس الشيء ، هم بأن يدلى برأيه فى إحدى القضايا التى احتدم فيها النقاش ، فتح فمه وغمغم بشيء ما ، رفع أحدهم يده فى وجهه يطلب منه السكوت ، اعتذر ، وانسحب إلى قوقعته مكتفياً بالفرجة وهز رأسه ، وحين حاول مرة أخرى لاحظ أن كل الرؤوس التفتت نحوه فى دهشة واستياء ، ليس عنده ما يقوله أو يضيفه فلماذا يصر على الكلام والإزعاج ؟

انصرف حانقا ، وتذكر بينما كان يذرع الرصيف ، ولا يعرف إلى أين يتجه ، ان أحدا لم يرد على تحيته عندما دلف إلى المقهى ، حتى صاحب المقهى خفض رأسه ، وتظاهر بعدم رؤيته .

ها هى اللعنة التى قذف بها أحدهم فوق ملفه ، فى غفلة منه ، تلاحقه فى كل مكان ، من المكتب إلى المقهى ، حتى الساعى المكلف بحمل الملفات لم يعد يتبادل معه كلمة واحدة ، يرمى بالملفات ويغادر الحجرة فى صمت . وفى طريقه الى البيت مر بالملبن ، ترامت ضجة وراء ظهره فلم يلتفت ، وتابع سيره البطىء مطرق الرأس، دخل إلى الملبن وألقى بتحية مقتضبة ، رفع يده بالزجاجة ، تجاهل الرجل اليد الممدودة والزجاجة المعلقة فى الهواء وانهمك فى حديث ضاحك مع أحد عماله .

ظل واقفا ما يقرب من ربع ساعة ، ويده مرفوعة فى الهواء ، وأدرك أخيرا أنه يجب عليه أن يقول شيئا :

– من فضلك . . .

نظر اليه صاحب الملبن فى استغراب ، ماذا يريد ؟ ها هو صاحب الملبن يبدى له وجها خاليا من أى تعبير كأنه لا يعرفه ، تناول منه الزجاجة بجفاء ثم دفعها إليه مليئة باللبن ، تقاضى منه النقود وألقى بها فى الدرج دون كلمة – وكأنه يطرده ، عاد يضحك مع العامل المشعث الشعر .

لن يمر بالمقهى ولا بالملبن ، التفت نحو مبنى المصلحة وهز رأسه ، أجل لم يعد يعرفه ، سوف يعود إلى البيت . مرت بالقرب منه إمرأة بدينة فتذكر زوجته – الملف المنتفخ الذى دأب على تصفحه حتى تهرأت أوراقه ، كانت صغيرة السن وجميلة ذات يوم ، وتحب أغانى « فريد الأطرش » ،

أما الآن فهى تتحرك بصعوبة ، وتشكو من ألم فى ظهرها وساقيها ، وتتذمر من كل شيء .

حين يدخل إلى البيت تهب فى وجهه ضجة خمسة أطفال ، ويرتفع صوت المرأة بالصياح والشتائم ، كانت صغيرة وجميلة ، وفوق كل ذلك لم تكن تنسى أن تصبغ قدميها ويديها بالحناء كل أسبوع .

يقبع فى ركن الحجرة حتى موعد النوم ، ينهض ويتمدد فى الفراش ويظل يتقلب فى فراشه وكأنه فراش من الجمر .

ينتهى اليوم ويحل يوم آخر بنفس الطول والملامح والرتابة ، يعود الى المكتب ، ويشرع فى تصفح الملفات ، يمر على الإسم وتاريخ الميلاد وسنة الزواج ، ثمة رسائل خصم من المرتب ورسائل ترقية ، يقارن بين سنة الميلاد وسنة الوفاة ، ويحسب السنوات التى قضاها صاحب الملف يدب فوق الأرض ويثير الخصومات ، يتساءل وهو يرمى بالملف عن معنى تلك الرحلة وجدواها إلى أى حد هى رحلة ضالة ومتعبة ، يقفل الملف ويختمه بالشمع الأحمر ، يرفع القلم ويخط فوق الغلاف « انتقل الى رحمة الله بتاريخ كذا . .

الظل يقترب من حافة النافذة :

وموعد الانصراف يقترب أيضا .

————*

توقف الأستاذ عبد الواحد ، وألقى على مبنى المصلحة نظرة متجهمة ، ونظرة أخيرة ، فقد قرر أن يستقيل من وظيفته ، لن يصعد الدرج مرة أخرى ، ولن يكون الظل شاهدا على مصيره ونهايته .

استدار ، وقفل راجعا وهو يفكر فى أشياء كثيرة ، وفى أولها أن يدلى برأيه حتى فى أتفه الأمور .


البقية
صمت...

ومر يوم ، انحدر نحو نهايته فى تثاقل مزعج ، كان أطول يوم فى حياتك المريرة ، كنت تعيش على حدود الصحراء والصمت ، تغرق أقدامك الحافية فى الرمال ، الرمال ساخنة وناعمة ، وهى كالصمت بلا نهاية ، كان الصيف فى ذلك العام كالح الوجه ، شديد الحرارة .

كنت أثناء الأمسيات الجافة الساكنة ، تنطوى على نفسك ، فى عزلة تامة ، ملفوفا بالغبار والذكريات ، تلقى بنظراتك الخابية على امتداد الأرض الصفراء ، والرمال المنبسطة تحت وطأة ليل موحش وكئيب .

تشرع فى الحديث الى نفسك ، فلم يكن هناك أحد ، فلا إنسان ولا شجرة ، لذلك كان صوتك الخشن يطارد الأصوات الأخرى البعيدة الغامضة ، الصدى الذى يتردد فى الفراغ ، تروى القصص لنفسك ، القصص المتخلفة عن زمن ظالم ومريب ، وحروب طاحنة وصيحات مدوية ، لقد احتفظت بهذه القصص ككنز ثمين ، تكف عن الكلام ، القصة بلا نهاية ، والنسيان آفة ، لم تعد تتذكر شيئا ، يتراكم الصمت ، تصرخ بغتة بلا وعى ، وتظل تنصت إلى صدى صرخاتك الهزيلة يبتعد ثم يقترب ، ثم يتلاشى ، تلوح بيديك فى إهمال وتفكر فى بقية القصة .

تكتب إسمك على التراب ، ولا يفوتك أن تكتب اسمها هى الأخرى ، تضع نقطة هنا ونقطة هناك ، وحول الإسمين ترسم دائرة صغيرة ، تفرح كطفل ، وتبتئس كرجل عجوز ووحيد .

تكتب على التراب :

من أجل عينيك الجميلتين ، وبتحريض منهما هجرت كل شيء ، وجئت بلا متاع إلى هذه الأرض الحارة ، قد أموت فى أية لحظة ، وحين أفكر فى ذلك ينقبض قلبى ، لن أراك مرة أخرى ، اختفى كالظل ثم تذرونى الرياح ، لن يصل الخبر إلى القرية ، سوف يضيع فى الطريق زمنا طويلا ، وإذا كتب له أن يصل فسوف يكون بلا طعم وتافها .

تبسط كفك فوق الكلمات الحزينة ، يختفى الإسمان فى لمح البصر ، وتومض فى ذاكرتك المنهكة حكايات بائسة عن العشاق وجنونهم ، تغرق فى أفكار سوداء ومخاوف بلا معنى ، ترفع رأسك فترى ظلك النحيف يرتجف ويتقلص ، ويتقلص فى اعماقك كل إحساس بالحياة ، فتلجأ مرغما — إلى النوم كآخر منفذ .

حين أزفت ساعة الرحيل قلت :

— أمى ، سأذهب الآن . . وداعاً .

لاحت على وجه المرأة العجوز ظلال قنوط وحزن ، لم يبق لك حجة أخرى ، انكمش الوجه المجعد وأغتم ، وتضاءل الجسد النحيل فى بؤس وعجز ، ترامت النصائح المعتادة ثم نضبت ، غمغمت استنكاراً ، ولاذت بصمت مطبق كأنها لن تتكلم إلى الابد ، فى تلك اللحظات أحسست أن الدقائق المتجمدة تلسع جلدك كجمرات متوقدة ، وتتجمع فى قلبك، وكدت ان تتراجع ، ولم تجد أمامك سوى قدرتك الخارقة على الثرثرة ، وعلى إعادة ما قلته مرات وكأنك تقوله لأول مرة ، كنت تهذى كالمحموم وهذا كل شيء .

أمى هل تسمعين ؟

رمقتك بعينين نصف مفتوحتين ، كانت تود أن تحتضنك ، تفحصت هيئتك الرثة ، ووجهك الذى يغطيه العرق والغبار ، تنعكس النظرة الحائرة على وجه الشمس المطلة من وراء الأشجار فترتعش وتلف فى إتجاه آخر .

إلى أى حد أنت الآن ضعيف الحيلة ؟

– هل تدركين يا أمى ما صرت إليه ؟

– حياتنا لم تعد تطاق .

– فى هذا العام لم تثمر أشجار الزيتون ، كانت الحصيلة ضئيلة تماما ، التراب يتصلب كالاحجار ، تحبل السماء بالسحب ولا تمطر ، ونحن مازلنا نندس فى جوف خيمة فى العراء ، ونرقب تصاعد السحب بوجل ، ثمة شىء يصرخ فى أعماقنا بوحشية .

لم يعد المطر قمحا واحلاماً ، وضحكات مرحة تحت أغصان الضوء والدفء ، هل تذكرين وجه أبى حين أغمض عينيه إلى الأبد ، كان الحزن يرتعد فى عينيه كالقمر فى ليلة عاصفة .

قمر بلا ضوء

زراعة . . زراعة . . ثم . . أف

اليوم نفط ، ثروة لايعلم مداها إلا الله .

استدارت المرأة العجوز ، وفى خطوات بطيئة ضيقة اتجهت نحو الكوخ ، لم يعد هناك ما تضيعه ولم يعد فى وسعك أن تنتظر ، لم يبق سوى أن تستدير أنت أيضا ، وتضع قدمك على الطريق باتجاه ذلك العالم البعيد الغامض .

وسرت فى الطريق ملاحقاً بدعوات طفولية حارة ، كان الطريق طويلا ومتعباً ، وها أنت تبتعد مخلفاً وراء ظهرك السنابل المتيبسة ، منكسة الرؤوس على اتساع الحقول المهجورة ، كانت السنابل تبدو من بعيد كخيوط شاحبة فى الضوء وتنبثق من الأرض ، وكانت تلوح مرة أخرى مائلة خاشعة كأنها تتلو صلاة وداع حزينة .

وانهمر كلام حارق فى نفسك ، وخواطر تعسة كالذنوب التى نتذكرها بدون مناسبة ، أنت تعرف أن كل ما قلته كان مجرد أعذار بليدة خاوية ، كنت تتحدث إليها على أنها إمرأة عجوز حمقاء لا ترى ولا تسمع ، بينما كانت هى تنصت إلى الكلمات الأخرى التى أخفيتها عنها ولم تبح بها لأحد . فقد كنت تحب أن تلتقط فتاتك الجميلة من الغبار والريح ، لم يزل صدى الصوت يتردد . . حين قال رجل بلهجة ساخرة :

– لقد كبرت أيها الولد وصرت كالثور ، هناك من هو أصغر منك وأنجب عددا لا بأس به من الأطفال . . وأنت

ضحكت فى ذلك اليوم بحرارة ، حتى كشفت عن سنك التى كلها البرد ، لم تعلق بشىء ، فقد نشط خيالك والتهب وجمح إلى مكان بعيد ، تصلب شعر رأسك حين تراءى لك وجه « زينب – كوجه الربيع ، غضا ومنشرحا ، يتألق بابتسامة عذبة فى ذلك ذلك اليوم انتصبت فى وجه الريح وصحت :

– زينب اقتربى ولا تخافى

سوف أتحول إلى شيطان إذا لزم الأمر ، أو أجعل الارض تدور فى اتجاه معاكس ، سأحفر صخور الجبال بأظافرى ، وألم ترابها وابيعه ، لن يكون هناك أحد غيرى ، من أجل عينيك أغزو الصحراء والجحيم .

الطريق لا ينتهى ، والأحلام العذبة تسبق خطواتك ، الوجوه الصماء على جانبي الطريق ، وجوه الفلاحين المنكبة على الأرض فى عشق تسوى الارض من خلفك فلا يبقى لإقدامك أثر ، أنت لم تعشق الأرض وانما عشقت فتاة من لحم ودم وابتسامات حالمة .

فى تلك اللحظة انتابك شعور غريب بأن الموت أهون من أن تواجه تلك العيون القاسية ، اللعنات كانت تطاردك عبر كل شجرة وحبة تراب ، وحتى الاحجار الكثيرة التى كنت تتعثر فيها كانت تلعنك ، يلاحظك صدى كلماتك عنيفة مبحوحة ، يختلط بنباح الكلام ، وتمزق لحم الأرض تحت ضربات الفؤوس الصدئة ، شرعت تجرى كالمجنون .

انت لم تعد واحدا منا ، انك ولد عاق وأخرق ، سوف نأكل الأعشاب ولكننا لن نتبعك ، ولن نذكر اسمك قط .

تندى جبينك بعرق بارد ، بلا رائحة ، وشعرت بأن جلد قدميك يتآكل ويتورم داخل الحذاء الضيق ، لا يبدو أن ثمة نهاية للطريق ، كان وجه القرية ينطوى فى صمت ، وتختفى وجوه سكان القرية ، تتلاشى ملامح عالمك القديم على المدى البعيد ، عندئذ كان العالم الذى تزحف باتجاهه مسرعاً وقلقاً — يتسع ويتماوج ، فيما مضى كنت ترى الدنيا تنتهى عند حدود القرية ، كم كنت ساذجا وضيق الفكر ، تقضى يومك فى مطاردة الفراشات الملونة عبر الحقول ، ومطاردة « زينب » التى تنزلق من بين أصابعك فى آخر لحظة كقطعة الصابون .

ولكن ، من أين تقبل كل هذه الأقدام يا ترى ؟

ومتى أنزل الله إلى الأرض كل هذا العدد الهائل من الناس ؟

كانت دهشتك تكبر فى كل مرة ، تشرق الشمس وتغرب ، وفى كل مرة كان عدد الناس يزداد .

————*

الصحراء أخيرا . .

الصحراء موطن الصمت والثروة الخيالية ، والآمال السرابية العجيبة ، والأمانى المستحيلة ، وعلى امتداد فراغ لا نهائى تتساقط الأيام ، ويغيب معنى الزمن ، يفقد قوته وثقله ، فى الرمال تغرق أصوات مبهمة ، والشمس تبدو على الدوام ذات وجه عابس .

ثمة شىء يتوارى خلف لا شىء ، إنها الصحراء ، كل شىء يظهر عاريا حتى الأحلام ، وهناك خط ازرق يصعد ويهبط ، يتمدد ، أو يتحطم فى صورة نقاط صغيرة حيث تلتحم السماء بالأرض — ويبهت الخط أو يبتعد كلما خيل إليك أنك تقترب منه .

فى الأيام الأولى أضناك الحنين إلى غناء الطيور ، وبهجة الضوء ينبسط برقة فوق العشب الأخضر كأنه يغسله ، قطرات معلقة بالضوء ، فى اللحظة التى تهب فيها واقفا حتى لا يفوتك ذلك المشهد الذى ترسمه الطبيعة فى الصباح الباكر .

فى الصحراء يموت كل شىء من حولك ، ويبطىء القلب فى نبضه ، العمال كثيرون ، مثلك جاءوا من أماكن بعيدة ، يعملون طوال اليوم ويتبادلون الشتائم الطازجة ، يرهقهم العمل ، وفى آخر النهار يعودون إلى عنابر النوم عاجزين عن حمل رؤوسهم ، إنهم يضحكون لأية نكتة غير مضحكة ، فى الصحراء لا بد أن تغالب شعورك بالضياع والوحدة ،

تتحدث عن مغامرات عاطفية وهمية ، والنساء اللاتى لا تقابلهن إلا فى الحلم ولا يجوز ان تعبر عن ولعك بهن إلا فى الحلم .

كنت تتبعهم عن قرب ، تختلط بهم — تبتعد عنهم وتعود إليهم ، تنصت إلى تعليقاتهم الصاخبة ، وتشفق من النهاية التعسة التى ينتهى إليها كل حديث يدور بينهم ، فلا بد أن يعقب ذلك شجار عنيف لاسباب تافهة .

تنتهى الخطوات المتعبة إلى عنبر النوم ، ذلك البناء الحديدى الواسع ذو السقف العالى ، الذى يلتهب حرارة فى الصيف ، وفى الشتاء يحتله برد لا يطاق ، برد وحشى ينخر العظام ، يستلقى العمال على الأرض ويكومون الأغطية فوق أقدامهم ، ولا يلبث النوم أن يطمس كل الرغبات ، واشباح النساء والوساوس .

مع مرور الوقت بدأت تتعود حياتك الجديدة ، الوحدة والعمل الشاق ، وسراب الصحراء ، ورؤية الوجوه الحمراء الداكنة الحمرة ، وجوه هؤلاء الوافدين من وراء البحر ، يتحدثون لغة غير مفهومة ، ويسكنون فى منازل نظيفة ، مكيفة الهواء ، يلتقون بالنساء عند الحاجة ، شعورهم صفراء ولامعة ، يقفون ساعات من الليل يرقصون ويغنون . . الصحراء تتسع للسعداء والتعساء فى وقت واحد .

بدأت تتعود سماع الكلمات التى لا تفهمها . وضجة الأنابيب الضخمة التى تغوص فى أعماق الأرض ، وهذه السوائل السوداء التى تلطخ ثيابك وشعر رأسك ، هجرت التفكير والأحلام ، الحياة مرهقة ، وفى الليل تتمدد على الرمال تنصت إلى أصوات دبيب الحشرات حتى يغلبك النوم . الزمن لا وجود له ، الأيام والشهور لا وجود لها ، إنك تعمل ، وتتدحرج

من مكان إلى آخر ، وتطيع الأوامر ، يتسخ جلدك ، تأكل وتنام ، والعجيب أن طعم الحياة لا يتغير ، الزمن هنا يوم واحد ، طويل وشاق وبلا بداية ولا نهاية .

ذات يوم تربعت على الرمل تتحدث إلى نفسك فى فرح وغبطة ، كانت الأوراق المالية تلمع تحت ضوء الشمس ، وتتكسر تحت أصابعك ، وينتج عنها صوت مبهج ، أوراق بلا عدد ، زرقاء وخضراء وحمراء ، وبعضها لا لون له ، وتعجبت أن تكون كل هذه الثروة لك وحدك ، ودق قلبك بعنف حين فكرت بأن هذه الثروة الصغيرة يمكن أن تضيع فتخسر كل شىء، زينب والفرح الذى ينتظرك عند عودتك .

تعود فارغ الجيب والقلب تجر وراءك خيبة مريرة ، صرخت فى فزع . . كلا ، كانت صرخة طويلة موحشة مفعمة برعب أصم ، انطلقت فى البداية كالشرارة ، تردد الصدى إلى مدى بعيد ثم انطفأ ، كنست الصحراء بنظرة واحدة ، وتبخر خوفك كما بدأ ، كان ذلك مجرد أوهام غريبة وبشعة ، وبقى أن تعد أوراقك الملونة فى هدوء .

انتابك وجوم ، ورحت تخوض فيما وراء الشمس والتراب ، تحملق فى وجوه أولئك الذين عبروا هذه الصحراء الواسعة يطاردهم الفقر والأعداء ويضنيهم التعب ، هل يعود من يغوص فى هذه الرمال ؟ . . من يجرى وراء السراب ، من يدركه العطش فلا يجد قطرة ماء واحدة .

وأنت ألم تكن هنا منذ الأزل ، تطوف حول ظلك تحت سماء مقفرة ، الزمن يلف من ورائك ، ويجتازك ، ويمضى بلا صوت ، تعدو خلفه ، ولكنك لا تلحق به ، من بوسعه أن يلحق بالزمن ؟

تعود آخر الأمر بعينين زائغتين ، وفى أثرك تهب رياح باردة .

تعود فتتربع على الرمل ، تعد النقود مرة بعد أخرى وتخطىء ، تتكرر اللعبة ، حتى أصبحت هى لعبتك المفضلة فى أوقات الفراغ .

إذا عدت بدونها ، فلن ينصت أحد الى صدى خطواتك ، أرعبتك الفكرة ، فلم تتمكن من أن تحصى أوراقك بدقة ، حشرتها فى جيبك وقلت انها تكفى مهرا لزينب — وهذا كل ما تحتاج إليه .

——*

كأن العربة كانت تنطلق بكل سرعتها فى اتجاه معاكس ، الطريق يتلوى ، وينحنى ، وتسرع الأشجار مبتعدة إلى الخلف ، خواطر قلقة تجول فى ذهنك ، وتتزاحم فى فوضى ، لماذا كل هذا التعب ؟ ومن أجل من ؟ الإجابة جاهزة تملأ خيالك تمرق بسرعة ثم تعود كالأشجار المنتصبة على جانبي الطريق ، كل ذلك من أجل عيني زينب ، فهى كل الأمل ، كل الحنين إلى حياة القرية ووجوه سكانها .

من اجــل زينب الفتاة الساذجة ، الموردة الخــدين ، الخجولة ، والتى يتضرج وجهها عند رؤيتك ، زينب التى لم تغادر القرية ولا مرة واحدة فى حياتها ، ستفرح بعودتك بلا شك ، وتفتح ذراعيها لإستقبالك ، قالت ذلك وهى تودعك عند رحيلك ، لم تهتم بما كانت تقوله ، فقد تعلقت عيناك بشفتيها الرقيقتين فى نهم ، تضيق به الأرض والسماء .

المدينة ، المحطة ما قبل الأخيرة ، تنقلت فى الشوارع المزدحمة بالعربات والمثقلة بالضجة ، الأرصفة وايقاع الخطوات المتعجلة ، تقطع بضع خطوات ثم تلتفت ، وعلى الفور أدركت أنه من الصعب الإحاطة بكل أسرار المدينة وبريقها فى فترة قصيرة ، ولكن المدينة ما هى إلا قلب

صلد وكل شرايينه من حجارة تعسه ، وشعرت بالغيظ لأنك لم تجد إنساناً واحداً يمكن أن تتحدث إليه ، حتى فى الصحراء كان الإحساس بالغربة أخف وطأة ، ها هم سكان المدينة يسرعون الخطى ، يمرون فلا يرفعون إليك عيونهم ، يمرون بك فى صمت ما الفرق بين أن تكون المدينة منحوتة من الحجارة أو من عظام الناس ، أو من الحديد ، إنها تأبى أن تعترف بك ، أو بأى إنسان آخر سواك ، فهذه هى المدن حجارة وأنفاس متقطعة ، تتراكم البنات فى شوارعها على نحو يثير البهجة والأسى فى نفس الوقت ، لحم مكتنز يشع حرارة وعطورا ، ويبدو محشوا فى سراويل ضيقة وقمصان خفيفة ، ثم هذه الصدور المنتفخة ، والمتأرجحة ، والمتمردة على كل القوانين .

كنت تغوص فى الزحام ثم تجد نفسك محاطا بعدد من النساء ، تستدير وتمشى فى اتجاه آخر ، ويتكرر الموقف ، فالنساء موجودات فى كل مكان ، تنحنى وتتمتم بالفاظ مبهمة .

أخيراً ظهر ثقل فى قدميك ، وظهر الشارع الذى يقود إلى المحطة ، العودة إلى القرية فهى القلب الوحيد الذى يتسع لكل طيشك واحلامك .

وضعت يدك فى جيبك تتحسس ثروتك ، وسحبت يدك خاوية ، فلا أثر للنقود .

تذكرت صرختك فى الصحراء ، كلا لن تصرخ مرة أخرى ، الحيطان بشر ، والبشر حيطان فلا فرق ، المدينة عربة بلا عجلات ، والحصان ينبغى أن يجر العربة حتى إذا كانت بلا عجلات .
فلا يمكن أن تتوقف العربة قط .


ضربات
الأجنحة الصغيرة



— ١ —

ولد عباس فى حجرة ضيقة تتسع لفأر ولا تتسع لذيله كما يقول المثل ، ولها نافذة صغيرة كعين الزجاجة .

كان الجو شديد الحرارة ، وما كاد عباس يلمس الأرض برأسه ، حتى وثب بخفة ، واستوى على قدميه الضعيفتين ، وركض من فوره الى مقهى زرياب ، ذلك المقهى العتيق الذى يقع فى شارع صاخب ، تحف به من الجانبين العمارات العالية والمتاجر الفاخرة ، وتحتله على الدوام زحمة المشاة . . هؤلاء الناس الذين يهتمون بأناقة مظهرهم قبل أى شىء آخر .

ألقى الطفل الهارب بجسده الطرى فوق كرسى حديدى ، ضم ساقيه القصيرتين ، واتكأ بمرفقه على حافة المنضدة المتسخة ، مط عنقه وشرع يرسل نظرات مشدوهة على الجانبين ، يتفرس فى المارة يقضم اظافره ، ويضحك بحبور .

كانت الشمس تملأ الشارع بضوء ساطع ، يتوهج على حافة النوافذ الزجاجية ، ويتألق فى واجهات المحلات التجارية ، يندس فى شعور النساء فتبرق وتلمع ، وأخيرا يتعلق الضوء بأوراق الأشجار فتتناثر الظلال فوق الأرصفة وترتجف .

انشغل عباس بمراقبة حركة الضوء فى الشارع فلم ينتبه لعينى عامل المقهى وهما تدوران حوله وتتفحصانه فى استياء واستغراب ، ومضى

يتطلع بدهشة إلى امرأة فاتنة تسلقت مذعورة خيطاً رفيعاً من الضوء . ومن ورائها امتدت عشرات الأيدى المرتعشة محاولة الإمساك بها ، ولكن المرأة شدت جسدها الرشيق إلى أعلى ، وواصلت تسلق الضوء فى خوف ، ثم مالت برأسها إلى أسفل وأطلقت ضحكة ساخرة .

اختفت المرأة ، وتراجع الذين كانوا يطاردونها ، وقد غلب عليهم الغيظ والخيبة – والتفتوا نحو الرصيف ، فلا بد أن هناك إمرأة لا تجيد تسلق الضوء ، واللجوء إلى طرق سحرية لكى تنجو من المطاردة .

– ٢ –

دلف إلى المقهى شابان ، وقد بدا احدهما أطول من الآخر ، ويرتدى قميصا على اللحم ، وسروالا حائل اللون ، وملطخا ببقع بيضاء ، يتماوج شعره الطويل ، ويغطى أذنيه ، وتتكسر أطرافه عند حافة القميص ، كانت إحدى يديه منهمكة فى حك جلده وتمزيق قشوره .

أما الثانى فقد كان قصيراً ، حليق الرأس ، وعلى وجهه ظهرت آثار كدمات منتفخة ، وكانت أذنه اليسرى متهدلة وبها آثار جرح قديم .

اتجها نحو منضدة فى زاوية المقهى وجلسا وقال الأول :

– تعبنا من مطاردة الفراشات دون نتيجة

لوح القصير بيده فى الهواء

– مطاردة الفراشات أفضل على أية حال من مطاردة الذباب .

مسح الطويل على شعره وقال :

– سأتزوج على الفور .

نقر القصير بأصابعه على المنضدة

ــ لعنة الله عليك وعلى تفكيرك الأحمق .

قطب الطويل حاجبيه :

ــ وما وجه الحماقة فى ذلك :

ضحك القصير

الحماقة هي أنك تحتاج إلى مصرف لكى تتزوج ، وأنت لا تملك فيما أعلم درهماً واحداً .

ومع ذلك فأنت حر فى أن تنتحر فى أى وقت تشاء .

التفت عباس نحو الشابين المنهمكين فى الحديث وقال :

ــ المنتحر يدخل النار . .

نهض الشاب ذو الآذان المتهدلة ، وضرب عباس بكفه الغليظة ، فألقاه على الأرض ، رجع الشاب إلى كرسيه وقال :

ــ طفل بلا ثياب ، ويتكلم عن النار .

ــ ٣ ــ

عاد عباس الى مكانه مغرورق العينين ، وقبع ينفض الغبار عن جسده الغض ، وأنصت بانتباه إلى ثرثرة رجل عجوز كان يحدث نفسه بصوت مسموع :

ــ سوف أركلها بقدمى هذه وأقذف بها إلى الشارع .

جلبتها إلى بيتى على سنة الله ورسوله ، وها هى تتمرد على ولى نعمتها ، وتطالب بدينار فى كل مرة مقابل لذة زائلة ، أجل ، هى صغيرة السن ، جسدها طرى وشهى ، ولكن دينار كل الليلة

لو ترضى بنصف دينار ! !

حدج عباس العجوز مندهشا وقال :

– من هى ؟ إنها بلا شك عديمة الأصل

أعول العجوز :

– لا تتدخل فيما لا يعنيك . . وإلا رميت بك إلى جهنم

تساءل عباس :

– أى جهنم تعنى ؟

شد الحاج طرف لحيته بقسوة وصاح :

– كف عن الهدر ، وابحث لك عن ثياب فذلك أفضل

نهض وغادر المقهى غاضبا .

– ٤ –

غرق عباس فى النوم عندما خلا المقهى من رواده ، ورأى نفسه فى الحلم على هيئة غصن فى شجرة عارية وأن الرياح تهزه بعنف فيشعر بألم فى ظهره . فتح عينيه قبل أن تحطمه الرياح ، رأى الشمس تتسلل من فوق العمارات العالية ، وتنزلق إلى الأرض فيموج الشارع بضوء أصفر باهت ، وبدا الشارع يتمطى ويتململ ، ولاحظ أن اعدادا من الناس تتوافد على المقهى ولكنه لم يجد وجها واحدا مبتسما واغتم لذلك .

أدرك عباس وقد اعترته كآبة غريبة انه قد كبر فى يوم واحد ، وأن طفولته لم تكن إلا حلما عابرا ، لقد أصبح رجلا يغطى وجهه شعر خشن ، ويشتعل دمه فى عروقه كلما مرت بالقرب منه إمرأة مكتنزة الجسد .

أيقن عباس أنه لا يجوز له بعد الآن أن يبقى فى المقهى عاريا ، فذلك

عيب لا يثير الاستنكار والخجل فقط ، وانما يقابل بعقاب صارم بلا ريب ، نهض باعياء ، واتجه إلى أول حانوت يقع قريبا من المقهى وابتاع بدلة زرقاء وقميصا وربطة عنق وحذاء من آخر طراز ، وقبل أن يغادر المقهى قال للبائع بكبرياء وثقة انه سيدفع الثمن وأكثر ريثما يستنشق رائحة النفط ، ويتقاضى أول مرتب من خزينة الحكومة.

— ٥ —

في غضون ثلاثة أيام تمكن عباس من أن يلتحق بوظيفة ساعى بريد متجول ، يعلق تحت كتفه حقيبة جلدية منتفخة ، ويجوب كل يوم شوارع المدينة مرفوع الرأس ، ويجيل طرفه فيما حوله ، يحملق فى الأرقام والعناوين ويدق على الأبواب المغلقة .

اكتشف عباس من خلال جولاته المرهقة أن بيوت المدينة تشبه القلاع الصغيرة ، تتلاصق فى تجهم ، مقفلة الأبواب ، قلاع تحملق فى وجهك بارتياب وتتهمك مسبقاً بسوء النية وفساد الضمير ، وهى تلوح متصلبة حتى فى وجه الهواء النقى .

ولم يجد عباس بدا منأن يدق على أبواب القلاع الساكنة ويجيب على أصوات النسوة المتسربة من وراء الشقوق والنوافذ ، ومن تحت الأبواب ، « رسائل » ثم يدفع بالرسالة إلى امرأة بلا وجه أو طفلة صغيرة ، يجلس القرفصاء على الرصيف ، أو يستند إلى جدار فى الظل يدخن وقد شرد بذهنه عن كل ما حوله .

بدا سعيداً أول الأمر بوظيفته التى تتفق مع مواهبه الطبيعية ، من صفاء ذهن إلى فراغ بال ، وفضوله الذى لا يتوقف عند حد ، إلى ولعه بتقليب عينيه فى كل ما يصادفه ، إنه يتميز الآن عن بقية الناس بأن فى استطاعته

فى اى وقت وفى كل مكان أن يلوح بقسم غليظ بأن وراء جدران القلاع وأسوارها نساء جميلات ومعطرات ، وأن فى وسعه أن ينفرد بإمرأة من لحم ودم ويتحدث معها، ويحملق فى جسدها بحرية وترو ، فالنساء وراء الأبواب يرتدين فى الغالب ثياب نوم شفافة ، تعتصره الشهوة حتى الجنون ، ويغطى العرق جسده ، ولكنه لم يحاول البتة أن يمد يده إلى خد امرأة أو صدرها ، فإن ذلك كما يقول يندرج فى باب المحرمات .

ولكنه ما لبث أن ضاق بمهنته المرهقة ، وبطوافه فى الشوارع صيفاً وشتاءً ، وباشتعال الدم فى رأسه وعروقه كلما أطلت إمرأة من وراء أحد الأبواب فى ثياب خفيفة ، أو صوت فتاة مراهقة يطرق سمعه منغما وحالما ، إنه يضيق برغبته التى تجعله يحنى رأسه خجلا ومهانة .

— ٦ —

طلب عباس نقله إلى وظيفة أخرى رحمة بأعصابه الضعيفة ، إلى أى وظيفة أخرى بعيدا عن النهود المتكبرة والعطور الحارة ، واندهش لأنه الحق بوظيفة « مراجع حسابات » لكنه أقبل على عمله الجديد بحماس منقطع النظير ، فهو يعرف الأرقام الحسابية جيدا ولا يخطىء ابدا فى رسمها ، فالرقم . . واحد مثلا عبارة عن نخلة مقطوعة الرأس ، أما رقم إثنين فهو يشبه رجلا مقوس الظهر يتجه برأسه فى كل الحالات ناحية اليمين ، وهكذا يمكن تخيل بقية الأرقام، وعندما يصل إلى رقم تسعة فإنه يمكن أن يرسم النخلة وقد أعيد إليها رأسها ، ورغم ذلك فإنها تظل نخلة عقيمة ، وأخيرا فان حفظ الأرقام لا يحتاج إلى ذكاء خارق ، إذن ، فالوظيفة سهلة ومريحة ، وفرح عباس بجلوسه إلى منضدة كبيرة ذات سطح لامع كالمرآة ، وفى حجرة نظيفة ، بالإضافة إلى ذلك الرجل

الذى يقبع أمام باب المكتب ، يلبى له طلبه بإشارة فقط ، ما أطيب ائجلوس فى هذه الحجرة المكيفة الهواء بعيداً عن الضجة والغبار والفساتين الشفافة المثيرة ، وكلما فرغ من احتساء فنجان من القهوة أمر بفنجان آخر ، يرفعه إلى فمه على مهل ، يرتشف منه رشفة صغيرة بصوت مسموع ، ويستمتع بالرائحة المتصاعدة منه ، من تحت يده المرفوعة إلى فمه يلقى نظرة متفحصة على الأرقام الموزعة بنظام دقيق فى مربعات صغيرة ، ولم يجد صعوبة فى أن يقفز من الرقم الأول إلى الرقم الأخير فى حركة رياضية فذة ، ويوقع منتشيا على صحة الحسابات ، وذات يوم تعثر عباس فى رقم كبير وها ، ان يوجد رقم حسابى يتكون من كل تلك الأرقام والأصفار التى تمتد بعرض الصفحة ، ورغم أنه تجرع ثلاثة فناجين من القهوة ، وحملق فى الرقم فترة طويلة إلا أنه لم يتمكن من معرفة أين يبدأ الرقم وأين ينتهى ؟ وكرر المحاولة بلا جدوى ، كان الرقم أطول من جذع نخلة بلا رأس ، ومع ذلك لم يجد عباس بدا من التوقيع على صحة البيانات .

— ٧ —

تعود عباس على مغادرة مكتبه قبل موعد الإنصراف بساعة ، وذات مرة ضبطه رئيسه خارجا قبل الموعد بساعة وخمس دقائق فقال له :

— سمحت لك بساعة بحجة انك تقضيها فى انتظار السيارة العامة ، والخمس دقائق من سمح لك بها ؟

أجاب عباس حانقا :

— إنه الصداع

قال الرئيس وهو مستغرق فى تأمل أنف عباس الكبير

- أى صداع ، لم أفهم شيئا

وضع عباس يده على رأسه وقال

– صداع مراجعة الحسابات ، إنه يحتاج إلى أكثر من خمس دقائق لكى يتبدد . . ومع ذلك فها أنا كما ترى لم أطلب أكثر من هذه الدقائق القليلة .

– ٨ –

انقطع عباس فجأة عن الحضور إلى مكتبه ، وهجر وظيفته ، وشرع يطوف بالمدينة بحثا عن سكن يليق بمكانة مراجع حسابات ، ثم هو لا يمكنه حسب قوله ان يظل طوال عمره أسير حجرة ضيقة تتسع لفأر ولا تتسع لذيله ، إن ما ينقصه إلى جانب المنزل اللائق إمرأة كبيرة الأرداف تكون كل شريحة لحم فى جسدها ملكية خاصة .

قصد عباس صاحب عمارة جديدة ، بعد أن كاد ييأس من الحصول على سكن ، وحين وقعت عليه عيناه أيقن أنه صاحب العمارة ، فقد بدا له كما تخيله تماماً ، قامة قصيرة ، ورقبة منتفخة ، العينان جاحظتان ، والرأس حليقة مدورة مغطاة بطاقية حمراء تصل أطرافها حتى الأذنين الكبيرتين ، تأمل عباس وجه الرجل المجعد وشاربه الكبير ، اقترب منه ومد له يده .

– أنت صاحب هذه العمارة الجديد بكل تأكيد

اعتدل الرجل فى جلسته ومسح على شاربه وقال :

– نعم . . أنا صاحب العمارة وقد بنيتها من اللحم والدم .

– رائع – سوف أسكن عمارة من اللحم لأول مرة فى حياتى .

– بكم تؤجر الشقة ؟

– يمكنك ان تختار الشقة التى تعجبك ولن تدفع إلا ما كتب الله .

ـ هذه هى الشهامة حقا

ـ أجل لن تدفع غير مائة وعشرين دينارا فى الشهر ، المال يغنى أما الرجال.

شعر عباس بمغص فانتفض

ـ لكن راتبى لا يزيد عن مائة دينار فى الشهر

ـ يمكنك أن تستلف فى كل مرة عشرين دينارا والمروءة لم تنقطع من الدنيا بعد .

ـ استلف ـ ومن أين أسدد .

ـ إنك كثير الكلام ، هل تظن أننى أملك حتى أفكر معك فى الحل .

ـ يمكنك أن تخفض الايجار قليلا

ـ ولا مليم يا أخ ، لقد بنيت هذه العمارة من مال الحكومة . . وعلى أن أسدد مال الحكومة بالدرهم أم تريدنى أن أسرق مال الحكومة .

لوح عباس بيديه مغتاظا

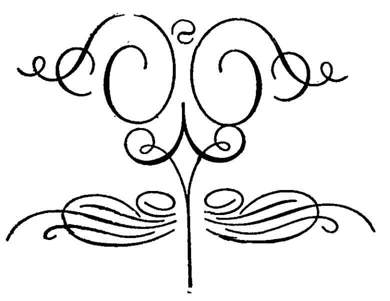
ـ أعوذ بالله . . من الذى يقول ذلك ؟

عاد عباس إلى مقهى زرياب وارتمى على كرسى شاغر ، وغطى وجهه بجريدة قديمة وما لبث أن غرق فى النوم ، وحلم بأنه عاد طفلا مرة أخرى لا يحتاج إلى شقة ولا إلى إمرأة .





أو قطرة من الزيت



البداية

غمر الحجرة ضوء متوهج ، فتحت عينيها ، ورمت بالغطاء بعيدا عنها رفعت رأسها ونظرت إلى وجهها فى المرآة الكبيبرة المعلقة على الجدار المقابل ، فى لحظة طاف بذهنها مشهد الليلة الماضية بكل تفاصيله ومتاعبه ، تحسست أطراف جسدها بأصابع باردة ، كيف كانت نتيجة المعركة هل خسرت شيئا ، لقد قاومت بعنف ، ورفضت باصرار وعناد ، حاربت بأظافرها وأسنانها ولم تستسلم ، صرخ جسدها وتصلب كالخشب طافت بشفتيها ابتسامة كبيرة ، لقد ربحت المعركة فى اللحظة الأخيرة .

فى اللحظة الأخيرة أفلتت حين يئس الرجل وغادر السرير ، كانت اقرب إلى اليأس فقد خارت قواها ، وتقطعت أنفاسها ، ووجدت نفسها أشبه بالغريق الذى يتشبث بقشة فى عرض البحر وهو يدرك أن نجاته باتت مستحيلة ، غادر الرجل السرير وجعل يدور فى الحجرة ويفرك كفيه ، خافت أن يعود ويجرب حظه مرة أخرى ، فهى الآن تتعلق بقشة فى عرض البحر وتوشك على الغرق .

الظـــــل

عندما وقف بالباب بدا شديد الإعتداد بنفسه إلى حد الغرور ، وتطلع فيما حوله باحتقار واستهانة ، قال بصوت خالطته رعشة خفيفة : الليلة — ولن تكون هناك ليلةأخرى ، وعند ذلك أبرقت عيناه تحت حاجبين مقطبين .

ابتسم فى ثقة وخبط الأرض بقدمه كالحصان

- قلت الليلة ولو انقلبت الدنيا رأسا على عقب .

قام بزيارة سرية إلى أحد الأولياء ، قرأ الفاتحة عدة مرات ، جلس القرفصاء عند مدخل الضريح ، ودعا لنفسه بالتوفيق والنجاح ، وغادر الضريح مطمئناً إلى أنه لن يخوض المعركة وحده ، سيكون الولى بجانبه ، الولى ودعوات أمه الحارة ونصائح أصدقائه ، وسيكون معه بعد ذلك كله هذا الحجاب الصغير الذى علقه فى رقبته ، أقبل فى آخر الليل فى دائرة كبيرة من الرجال والضجة، يمشى بخيلاء ويبتسم ، يتحسس الحجاب الصغير عند كل خطوة ، رسم خطة الغزو كاملة فى مخيلته ، لن يكون هناك كلام ولا مداعبات ، ولن ينظر إلى وجهها كما أوصوه ، عليه أن يقفز نحو الجسر مباشرة ، ينبغى أن يتم كل شىء بسرعة وحسم ، إذا سمعت أنينا أو توجعاً فلا تهتم ليكن هدفك الأول اجتياز الجسر فى قفزة واحدة .

الظل وقطرة الزيت

امتد رأس الظل فى سكون نحو قطرة الزيت ، مد يده وحاول ان يمسك بها ، كم هى رطبة وناعمة ، وهذا ما لم يخطر بباله ولم يحسب حسابه ، استمرت اللعبة وقتاً طويلا ، قطر ة الزيت تنزلق من مكان إلى آخر ، تلتصق بالفراش ، ثم تنزلق فجأة نحو الجدار ، تتكوم عند زاوية الفراش ، تتماوج ببطء عند الحافة ، تنحدر نحو الزاوية الأخرى .

تتوقف ، تتمدد وتنكمش ، تغوص فى الفراش ، تدنو من الظل ثم تنزلق فجأة من بين أصابعه ، الظل يتمطى ، يتطاول ، يطارد نقطة الزيت بطول وعرض الفراش ، يلهث من الاعياء ويقبع عند حافة السرير يلتقط أنفاسه .

اليأس يغمره ، قواه تخور ، وفقد حتى الأمل فى أن يخرج ولا يترك وراءه آثار معركة خاسرة ، فالآثار سوف تبقى ، وقصته سوف تروى من مكان إلى آخر ، ومن يوم لآخر ، تذكر جلوسه الطويل عند ضريح الولى ودعواته لنفسه ، وما أسره فى نفسه أن يعيد تبيضه ، وبناء سور حوله فيما أنجز مهمته فى الليلة الأولى ، وتم له كسب المعركة ، أخفقت ترتيباته وضاعت خطته ، لن يرفع رأسه بعد الآن ، وسوف يخرج على الناس براية منكسة ، وعار هزيمته يثقل خطواته .

نهض واقفاً ، ارتدى ثيابه ، واتجه نحو الباب ، غادر الحجرة بسرعة كاللص الذى لم يتمكن من سرقة أى شيء .

ولم ينس أثناء خروجه أن يشد الباب من خلفه ويغلقه وراءه .
فى الليلة القادمة سوف يخوض المعركة بلا ولى ولا حجاب .

ما زالت وحيدة وستبقى ، امرأة من زمن آخر ومن حلم لم يأت بعد ، وطالما كان هناك من يقترب من الباب ثم يشيح عنه ، ويرهب أن يمد يده نحوه ، يدركه العجز فى الخطوة الأخيرة ، ويتوقف عند هذه المسافة القصيرة التى تفصل بين اليد والباب ، فلا اليد تمتد ولا الباب يفتح ، كثيرون مروا من هناك ، وعبروا الشارع ولم يلتفتوا . . اختفى صدى خطواتهم ، كان الباب هناك كما تركوه ، فى صورة لم تتبدل ، كأنه أقيم منذ لحظات ، ولم يخطر ببال أحد أنه باب قديم متهرىء يمكن أن يتهاوى بضربة واحدة أو ربما بلمسة واحدة .

كانت تسأل بمرارة ولا تتلقى أية إجابة ، فكل من توجه له السؤال يخفض رأسه ويلوذ بالصمت ، لماذا الباب مغلق :

لماذا تبدو الشمس شاحبة الضوء ؟

من الذى يقف هناك ؟

تسأل عن كل شىء ، واصبحت تفكر وتبحث عن الإجابة بنفسها .

الرجل الآخر

انهمك فى عمله المجهد فلم يبال بالشمس التى كانت تصب حرارة جهنمية فوق رأسه ، ولم يبال أيضا بزحام الفضوليين ، تجاهل التعليقات الساخرة وكل همه أن يفرغ من عمله بأسرع ما يمكن .

كان الرجل مشغولا بتركيب شباك حديدى فوق نافذة بيته ، تلك النافذة الوحيدة المطلة على الشارع .

ولم يفرغ من عمله إلا قبيل غروب الشممس بفترة قصيرة .

تراجع إلى الوراء ، وتنهد بارتياح ، قفل جديد ، وشباك حديدى متين ، شعر بالطمأنينة تغمر نفسه وتخفف من تعبه .

كان العمل شاقاً ، ولكنه فرغ منه فى نهاية الأمر ، الآن انتهى القلق الذى كان يعذبه ، ويعكر راحته ، بل ويطير النوم من عينيه ، حماية الشرف قبل كل شىء ، قبل الأكل والتدخين ، لن يمس أحد كرامته بسوء بعد الآن ، لن يندم على ما فعله ، وود لو كان فى وسعه أن يضع شباكا حديديا حول الباب أيضا ، عندها لن يجد « أبناء الحرام » أية فرصة للإقتراب من ابنته « جميلة » لقد حل وقت الراحة ، ولن تكون سيرة ابنته عرضة للغمز واللمز ، لقد سدت الطريق فى وجه كل الإشاعات المغرضة ، الشباك الحديدى لن يسمح لأى مخلوق بالتسلل إلى البيت ، أما قفل الباب فهو يحمل مفتاحه فى جيبه ، لن يفكر أحد بالطبع فى اقتحام البيت وكسر الباب .

لقد شم رائحة الدخان فى الهواء ، قبل أن يقبل على تأمين مستقبل ابنته وحمايتها ، انقشع الدخان فصدمته الحقيقة المؤلمة كضربة قاسية مجهولة المصدر ، نزلت بعنف على قفاه ، جميلة على علاقة بأحد الشبان .

ابنته تحب شاباً من وراء ظهره ، ابنته تحب رجلا ، ما معنى ذلك ؟ وما الذى يقصده الناس بكلمة الحب هذه ؟ من الذى اخترع هذه الكلمة اللعينة ؟

فالذى يعرفه أن المرأة خلقت للزواج ، والزواج وحده ، أن تحب المرأة فمعنى ذلك أن تتوه وحيدة فى الظلام ، فهل يتحتّم عليه أن يغض بصره ، وأن يترك الحبل على الغارب ؟

إذن فهو يغض بصره بازاء رجولته ، وعادات مجتمعه المتوارثة ، وبازاء شرفه وشرف الحياة نفسها .

وهل يمكنه بعد ذلك أن يرفع رأسه ، ويفاخر بسمعته الملوثة ؟، وأين ما عرف به ، وما اشتهر عنهمن حزم وشدة فى معاملة النساء؟ ، لقد فاخر ولسنوات طويلة بأنه يكاد يكون الوحيد فى حيه الذى حرم على ابنته الذهاب الى المدرسة ، وأقسم بالطلاق وبكل الأولياء الصالحين بأنه لن يترك ابنته تذهب إلى المدرسة طالما هو حى يرزق .

تنهد مرة أخرى ، ونفض الغبار عن وجهه وملابسه .

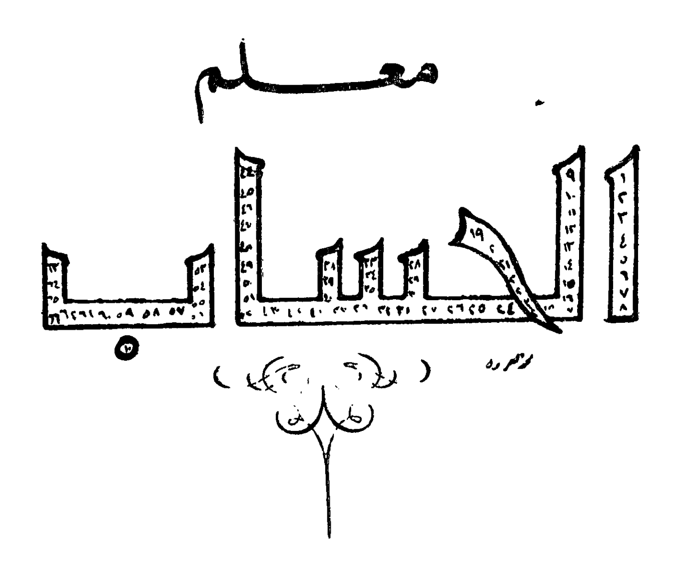
الخروج

سوف تبحث عنه وتجده ذلك الذى أقبل من وراء السحب ولم يعبأ بالشباك الحديدى ، والقفل الجديد ،

إنه هو الذى طرق الباب وأجاب على السؤال

لن تعود بدونه .

لن تعود بدونه ولو انقضت عمرها كله فى البحث عنه .


معلم
الحساب

كان « أبو ستة » معلما للحساب بإحدى المدارس الابتدائية وقد انهمك في تعليم هذه المادة المعقدة للصغار ما يزيد عن عشرين عاما بلا انقطاع ، لم يتغيب أو يتأخر يوماً واحداً ، يدلف إلى الفصل في الوقت المحدد ، ويغادره في الدقيقة الأخيرة عند نهاية الحصة .

يقول : أنا كالساعة ، والساعة لا تشرد ولا تغش

يترك كوب الشاى عند حافة النافذة حتى يفقد حرارته وتنتشر على سطحه ذرات الغبار ، وعندما يقرع الجرس ويهتز الصمت ، وكان ذلك بمثابة راحة لمدة خمس دقائق بين حصة وأخرى – يفرك أبو سته أصابعه الملوثة بالطباشير ، يخرج من الفصل ويستند إلى حافة النافذة ، يلتقط كوب الشاى ويحتضنه بين كفه وأصابعه ، يرتشف الشاى على مهل حتى القطرة الأخيرة ، ثم يعيد الكوب إلى مكانه ويستأنف درساً جديدا في فصل آخر .

أحبه أطفال المدرسة لأنه لم يحاول أن يكتسح صخبهم وإهمالهم بالعصا كما يفعل بقية المدرسين ، كان يلجأ إلى النصائح ، ويواجه العيون المصوبة إليه في بلاهة بسرد حكايات مكررة عن صراعه المزمن مع مسائل الحساب يوم أن كان هو الآخر تلميذا صغيرا لا يعرف كيف يتحكم في شروده في حصة الحساب .

عشرون عاما في نفس المدرسة ، وفي كل عام تزدحم المدرسة بوجوه أطفال يختلفون عن الذين سبقوهم ، فهم يبدون أقل هدوءاً وطاعة ، وأكثر

اصراراً على إثارة الأعصاب بالجلبة الشديدة وعدم الانتباه والاهمال .

ورغم المجهود الهائل الذى يبذله من أجل توضيح وتبسيط المعلومات ، والاستعانة اثناء الشرح بيديه ورأسه إلا أن كل ذلك ما يلبث أن يتلاشى فى غبار الطباشير ، وتتساقط حبات العرق من جبينه بلا جدوى ، يتراجع خطوة إلى الخلف ، البلاهة تحاصره ، وتتبدى فى العيون المحدقة به كالضباب وعندئذ يكتشف أنه اخطأ فى حل المسألة .

يتنهد ويقول لنفسه : الحال من بعضه .

انشغاله بمسائل الحساب أنساه نفسه ، فها هو يتوه فى رحام العيون والوجوه التى تتبدل مع الزمن كما تتبدل الملابس وتبلى ، سنوات عمره تتساقط كالاوراق الذابلة، كان كل شيء عنده قابلا للتأجيل ، شيء واحد غير قابل للتأجيل وهو تلميع حذائه ، يقول : « نظافة الحذاء من نظافة الوجه» حكمته الوحيدة التى أجهد نفسه فى ترتيب كلماتها وحفظها ، وملاحظاته تنصب متهكمة حول هذا الموضوع بالذات .

لم يتزوج رغم أن موضوع الزواج كان كالحذاء الذى يستغرق وقتا طويلا فى تنظيفه ودهنه ثم يغطيه الغبار مرة أخرى لأن الشارع مترب .

كان يتعلل بأسباب متضاربة ، وإن كانت تلوح بعد تفسيرات طويلة ومرهقة مقنعة ومقبولة من أسرته ومن معارفه الذين يلحون عليه فى أن يكمل نصف دينه ، يعلن عن رجولته أمام الملأ ، يفتح بيتا ويربى أطفالا للمستقبل ، يطرقون أبواب الحياة التى لم يستطع طرقها ، ويتذوقون طعم السعادة التى حرم منها وهو تعويض مقبول ، لم يكن أحد من أولئك الناس الذين يتدخلون فيما لا يعنيهم حسب رأيه — يدرى أنه هو نفسه كان مشغولا طوال الوقت ومرهق النفس لحد المرض بهذا الموضوع ، كان مستقبله

العاطفى هو رأسماله الوحيد من البداية ، إنه ما زال يذكر يوم كان طفلا كان يميل إلى اللعب مع البنات ، وقد تعود على أن يمنى نفسه بالزواج من كل بنت تقع عليها عيناه ، لقد انقضت تلك السنوات كما انقضى زمن اللعب ولم يبق سوى الأمنيات الحائرة ، وعندما تخرج أبو سته فى من معهد المعلمين وعين معلما للحساب بالذات أخذ يستغل الأرقام الحسابية كما لم يستغلها إنسان من قبل فيما يتعلق بمستقبله العاطفى وحنينه الجارف للمرأة ، لا بد أن يبدأ فى التوفير من أول مرتب ، والمسأله هى معرفة كيف يخضع كل مليم للحساب الدقيق ، فى نهاية الشهر يتسلم راتبه ويوقع على الكشف بحروف بارزة ، وهو لا يشك فى أنه وضع راتبه فى جيبه ، وفى كل مرة يقضى ساعات طويلة فى توزيع راتبه على المستحقات الأساسية ، خصم ايجار البيت ، مصروف الأكل ، ثمن اللفائف ، لا فهو لا يدخن ، ولكنه يشرب الشاى بكثرة ، المبلغ الذى يعطيه لأبيه ، وهو التزام لا بد منه ، ها هو يرسم علامة إستفهام كبيرة ، ما الذى يبقى ؟ رقم هزيل ويظل هزيلا رغم تقسيم الأعداد الزوجية إلى آحاد ، فهو لا يقبل أن يجمع عشرة وعشرة كرقم واحد ، يكتب واحدا وواحدا حتى يصل إلى الرقم المطلوب ، كانت كل محاولاته تضيع هباء ، يعود إلى تفتيت الأعداد الصحيحة ، ولا يهمل الكسور أبدا ، يغمض عينيه ، يبدو أنه وقع فى خطأ ما ، يعيد الحسبة من جديد ، الحل لا يتغير ، ثمة فرصة للتوفير فى المرتب القادم ، يمزق الوورقة ، وينهض من وراء طاولته العتيقة ، يتأمل وجوه الأطفال ويقول : المسألة بسيطة . . الفلاح باع بقرته بكذا ، وخسر فيها كذا ، فبكم باع البقرة ؟

ودائما ينهض من بين التلاميذ من يسأل ببساطة ودهشة ولماذا خسر ؟

، يجيب الأستاذ من وراء إبتسامة باهتة لأن الدنيا ليس فيها إلا الخسارة

الإجابة ليست كافية وهو يدرك ذلك ، فهى غائمة وكئيبة ، ولكن التلميذ لا يملك إلا أن يطوى إصبعه المشرعة ، يجلس ويستغرقه التفكير فى فك عقدة الخسارة فى هذه المسألة الحسابية غير المعقولة ، الرؤوس منكسة ، همس مكتوم ، يبدو أن الخسارة فادحة حقاً .

يعقد يديه خلف ظهره ، ويجوب الفصل ينصت إلى فرقعة حذائه فوق البلاط ، الصمت مطبق ، يبدو أن خسارة الفلاح تشبه الخدعة ، تحلق عيناه فوق الرؤوس المنحنية فى سكون ، فجأة يتوقف بالقرب من تلميذ كبير الرأس ، ينظر إليه مندهشا كأنه اكتشف شيئا غريبا ومثيراً ، يربت على رأس التلميذ ويقول :

– لماذا تحمل رأسا كبيرا كهذا يا بنى ، ألم يكن من الممكن أن تولد برأس أصغر قليلا ، ثم إنه فيما أظن فارغ تماما أو معبأ بالخرافات . مسكين أنت يا بنى ، سوف ترهق نفسك بحمل رأس ثقيل كهذا بدون فائدة .

كان الأستاذ يتكلم بلا توقف وبلا مبالاة ، ودون أن يبدى أقل اهتمام بالتلميذ الذى كان وجهه يمتقع ودموعه تسيل من عينيه وهو يحاول أن يخفى رأسه بيديه .

ويفاجأ الأستاذ بضحك التلاميذ وهم يتابعون المشهد المسرحى الساخر بينه وبين التلميذ .

ترى هل انحلت عقدة الخسارة بهذه السرعة ، تتدلى شفته السفلى غضبا ، هذا عبث لا مبرر له ، كلماته أضحكتهم ، العقدة ما زالت قائمة ، لم يكن ابدا يتسلى بما قاله ، كل ما هنالك أنه أبدى شفقته على تلميذ يحمل رأسا

بذلك الحجم الذى لا يصدق ، حتى أنه كان يتصور نفسه بليد الإحساس — بل ولا يستحق لقبه كاستاذ لو لم يظهر دهشته ويدلى بملاحظاته الفذة هذه .

— والله لم أكن أقصد اهانتك يا بنى

— سامحنى ، لا تهتم بما قلته فهى مجرد ملاحظات عابرة

وما يكاد الأستاذ أبوستة يفرغ من آخر حصة حتى ينسى تماماً الفلاح الذى باع بقرته بالخسارة ، ينفض عن ثيابه غبار الطباشير ويغادر الفصل ، يمشى بخطوات واسعة حتى حجرة الإدارة ، يطل على الوجه الكئيب المنفى

خلف نظارة قديمة ، يلوك جملته التى لا تتغير ، يقول : فى آمان الله ، بصوت قوى لا بد أن يسمعه المدير ، وهكذا يكون قد فرغ تماما من كل ما يربطه بالمدرسة حتى اليوم التالى .

عندما يجد نفسه خارج أسوار المدرسة يبطىء فى سيره ، يعود إلى التفكير فى نفس الموضوع الذى لا يشغله غيره وهو موضوع التوفير والمرأة التى تنتظره لا بد خلف أحد الأبواب فى هذه المدينة ، طوال الطريق إلى المنزل ينشط عقله فى البحث والمراجعة ، نعم إنه الآن يستطيع أن يقول لكل من يسأله أنه وفر نصف المهر المطلوب ، أما الأثاث فمن السهل أن يخصص له دفعات شهرية ، لن يرهق نفسه بالديون ، سوف يشترى كل ما يلزمه قطعة قطعة ، يدفع ثمنها قبل مغادرته دار البيع ، أجل يجب أن يخضع كل خطوة من خطواته للارقام والحساب فلا مجال هناك للوعود الكاذبة وخداع النفس فذلك من اختصاص الحمقى وحدهم ، شراء الأثاث بهذه الطريقة لن يستغرق أكثر من عامين ، إذن فما الذى يبقى؟ ، اختيار الفتاة المناسبة، لا يهم الجمال فلكل إنسان ذوقه ، لا يكفى إلى أى حد تكون متعلمة ، يكفى أن تجيد عمليات الطرح والجمع .

تنتهى الطريق ولا تنتهى الحسبة المعادة ، من نقطة صغيرة يبدأ ، إلى حد لا يصل قط ، يعود إلى نفس النقطة فى اليوم التالى ، الزمن لا ينتظره ولا يعود إلى الوراء ، والسنوات لا تدور حول نفسها .

ساعة الغذاء ينسى الأستاذ أبو ستة الموضوع ، ينشغل بالأكل ، وينشغل أكثر بلعق أصابعه ، أمامه دائما وقت آخر للتفكير ، يأكل وينام ، فى المساء يقضى ساعات الفراغ فى لعب الورق .

فى الصباح تشرق الشمس ، وينطلق الأستاذ باتجاه المدرسة فى خفة ونشاط ، يمسك برأس الخيط الذى انقطع ، ينزلق على امتداد الطريق ، تمرح خواطره بلا قيود ، يعود لحظات الى طفولته وشبابه ، يرفع رأسه ، ولكنه ما زال شابا تضيق الدنيا بعملياته الحسابية المكررة .

——*

ما الفرق بين هذا اليوم وأى يوم آخر ، يطرح الأستاذ أبو سته السؤال على نفسه وهو يحدق فى الفراغ ، لم تنته الحصة الأولى عندما اقتحم الفصل أحد المباشرين وقال له ان المدير يطلبه ، خرج من الفصل وقطع الممر الصغير فى خطوات مضطربة ثم وقف يحملق فى الوجه الشاحب والنظارة القديمة .

— إن شاء الله خير . .

— خير يا أستاذ .

تناول الظرف الصغير وسحب منه ورقة مطوية ، فتح الورقة وبسطها تحت عينيه ، وشرع يقرأ ويعيد القراءة ، الكلمات قليلة ولكنها غامضة كمسائل الحساب ، كهذا العالم الذى يضيق من حولك رغم اتساعه ، يغمره

العرق وليس هناك أمل فى أن يتغير معنى الكلمات ، يكرر القراءة ويظل المعنى متجهماً وعسير الفهم .

لن يمسك بأصابعه قطعة طباشير بعد اليوم .

لقد أحيل على التقاعد ، وهكذا كل شيء

عاد إلى الفصل وألقى على التلاميذ نظرة وداع صامتة ، لكم يود أن يخبرهم بما يدور فى ذهنه فى هذه اللحظة ، ولكنه وجد أن كل الكلمات فارغة وصدئة ، لا يمكن أن تعبر بدقة عما يريد قوله ، ألقى نظرة أخيرة على باب المدرسة الخارجى قبل أن يجر قدميه مبتعداً .

لم يجد فى نفسه رغبة فى العودة إلى البيت مباشرة ، وفضل أن يقضى بقية الوقت فى التجول ، واجهات المتاجر تمتلىء بالملابس المستوردة المعروضة باغراء ، المدينة معرض كبير ، وجوه وأزياء لا يمكن تحديد جنسيتها ، انتقل من رصيف إلى رصيف ، شعر بالاعياء فدلف الى احدى المقاهى ، وأخذ يتفرج على المارة من وراء الزجاج ، ها هى فتاة ترتدى نصف فستان ، رسم علامة تعجب بأصابعه ، الجو حار ، كل شيء يوحى بأن الجو حار ، كل النساء يرتدين انصاف فساتين .

نهض من مكانه وغادر المقهى وهو يشعر بأنه كان غائبا عن الدنيا ما يزيد عن عشرين عاماً .

عند مفترق الطرق وقف ينتظر إشارة المرور الخضراء عندما طرق اذنيه صوت يناديه .

— يا أستاذ .

— يا أستاذ أبو سته

حسن يوسف اللموشي

التفت .

ظلال الغروب ترتجف فوق الجدران

— ترى من يكون . ؟

اقترب منه شرطى مرور وعلى شفتيه إبتسامة واسعة . شدعلى يده بحرارة

— اهلا بالاستاذ .

— ترى من يكون

— أنت لم تعرفنى طبعا ، اننى تلميذك الذى كان يحصل على أعلى درجة فى مادة الحساب ، انقطعت عن الدراسة والتحقت بالشرطة كما ترى ، تزوجت واشتريت سيارة .

— مبروك ! !

قال مبروك وتابع طريقه ، أنا أيضا سوف أتزوج فقط لو أنهم يعجلون بمستحقات التقاعد . ليتهم يعجلون .




شاهد
آخر

تقدم حتى منتصف القاعة يده فى جيبه وفوق جبينه تلمع قطرات من العرق ، الجو حار أما فى الخارج فالبرد يجمد الأطراف ، شعر بارتباك رغم ثقته الشديدة بنفسه ، الذى يدفع ثمن آلام الحياة دائما إنسان وحيد لا يشبه الآخرين ولا تغريه أطماعهم الصغيرة أو الكبيرة ، لقد هرع إلى هذا المكان لينسى كل شىء ، كل بؤسه الروحى ومخاوفه وكل عذابات الناس الذين يعرفهم والذين لا يعرفهم ، الشقاء الذى يكابدونه والذى يكابده معهم ، لماذا إذن يبقى منتصبا فى مكانه كالصنم ، أجال بصره بسرعة فى زوايا القاعة المعتمة ثم اتجه نحو منضدة خالية ، جلس بحذاء الجدار وعلق إحدى قدميه فوق الأخرى ، فى جولة ثانية عبر القاعة كاد أن يكذب عينيه ، ما يراه يفوق ما حلم به وما توقعه ، لم يكن يتصور هذا العدد الهائل من الفتيات ، هن أكثر من حبات البطاطا فى صندوق كبير ، وكل الفرق أن حبات البطاطا تبدو متشابهة ، أما هؤلاء الفتيات فهن يختلفن فى كل شىء ، صفق بيديه طربا ، كم فى هذا العالم من فرح ومتعة ، وكم فى هذا العالم من عذاب ودموع ، أشار إلى « الساقية » فهرعت نحوه على الفور ، أمر بمشروب مركز لم يحدد نوعه ، إنه يريد شيئا يجعله ينسى كل شىء ، يريد أن ينسى الثلاثين عاما من عمره التى قضاها يجر ظله خلفه فى صحراء بلا نهاية ، أن يستمتع بقدر ما فى قلبه من حزن ، وما فى سجل حياته من اخفاقات ، عادت الساقية فى لمح البصر ، عادت بالمشروب ومعه شرائح صغيرة من الجبنة ، شرع ينظر بلهفة إلى الرغوة التى تطفو على حافة الكأس ، فى لحظة يمكن أن تصبح كل مآسى الإنسان فى هذه

الدنيا مجرد طبقة دقيقة من الرغوة البيضاء ، احتسى جرعة من الكأس ولعق شفتيه ، أشعل لفافة تبغ ومسح قطرات العرق من فوق جبينه بظهر يده ، عاد يصب نظراته الزائغة فى كأسه المترعة ، كم فى هذه العالم من متع وكم فى هذا العالم من آلا م ، شرب بقية الكأس فى دفعة واحدة ، ثم تنهد بارتياح ، كم فى هذا العالم من أوهام خفية ، طلب كأسا آخر وقد تندى جبينه بالعرق مرة أخرى ، أخذ يتناول قطع الجبنة بنهم ، هناك لا طعم للجبنة إطلاقا ، هذه مسألة أخرى لم تخطر بباله من قبل ، أن يكون لطعم الجبنة هذا الإختلاف الكبير من مكان إلى آخر ، بعض الناس لا يحبون الضوء ويفضلون الحياة فى الظلام كالخفافيش ، هناك شمس متوحشة أما هنا فالضباب يغطى المدينة طوال الوقت ، هز رأسه بعنف وجعل يتفرس فى أجساد الفتيات بنظرة نهمة ، فقط لو يزول الضباب الذى يرين على عينيه ويحول بينه وبين الرؤية الواضحة كستارة شفافة ، لو يزول هذا الضباب اللعين قليلا ، دعك عينيه بأصابعه ، أشار إلى واحدة لاحظ أنها كانت تنظر نحوه منذ أن جلس فى ذلك المكان ، لوح لها يدعوها إلى منضدته ، اقتربت الفتاة فى خطوات بطيئة ، توقفت بالقرب منه فدعاها إلى الجلوس بايماءة من رأسه ، كل شيء فيها جميل حتى هذه السن المكسورة ، حتى سروالها الضيق الباهت اللون ، أما زرقة عينيها فهى شيء آخر ، شيء آخر تماماً ، ثلاثون عاما وهو يجر ظله الشاحب فى صحراء بلا نهاية ، الزمن نفسه ، وثمة رجل عجوز يجلس القرفصاء فى الشمس وينظر فى اتجاه بعيد ، لم ينقطع يوما عن رؤيته ، إنه يجلس هناك بلا عمل إلا اذا كان النظر إلى لا شيء عملا له قيمة ، لطالما رأى نفسه مكان ذلك الرجل وكم كان يحزنه ذلك ويشقيه .

فى الصباح يجر قدميه المتعبتين نحو مبنى الشركة وفى ذهنه يتمدد سؤال

غامض ، يندس خلف طاولة عتيقة ويوقع على الاوراق ، يتصفح الملفات ، ينادى على المباشر بصوت أجش ، يطلب قهوة يحتسيها بسرعة ، يتثاقل الوقت وكأنه يتحدى ما يشعر به من سأم وضجر ، يخرج فى موعد الانصراف كموظف يقدر مسؤوليته ويعطيها كل جهده ، كل الموظفين يشهدون بكفاءته وخبرته ، أما خبرته فى مقاومة الضجر فلا أحد يعرف عنها شيئا ، إنها كل خبرته ، كل ما تعلمه فى حياته الرتيبة أن يقاوم الضجر حتى موعد الانصراف ، إنه يخوض كل يوم معركة قاسية ضد الموت البطىء ، قرأ عشرات الكتب ، وتطلع عشرات المرات إلى السماء المحتقنة بالسحب ، وخاض تجارب حب ملتهبة نسجها بخيال نشيط ، فى آخر المطاف يترك مكتبه باتجاه البيت ، ثم باتجاه المقهى ، ثم يحل موعد النوم ، هاهى السنوات تمضى ، فى فصل الخريف تتعرى الأشجار ، وتهب رياح محملة بالغبار ، وفى فصل آخر تكتسى لونا جديداً ، كل ما يعرفه أن حياته تتبدد فى صمت وأنه يتلاشى فى هدوء كما تتلاشى السحب الصغيرة ، إنه يتآكل فى دائرة مغلقة كأى إنسان يعيش بلا قضية ولا روح

رفع رأسه ، ومد يده دون أن يرفعها من فوق المنضدة ، جعل يمسح على ذراع الفتاة العارية بأصابعه وكأنه ينفض عنه الغبار ، شعر بحرارة قاسية تجتاح جسده كالرجفة ثم تصعد إلى رأسه كحربة ساخنة ، وجه الفتاة يبتعد ويبتعد وتشحب ملامحه شيئاً فشيئاً ، ها هى كل آماله فى أن يقضى ليلة سعيدة تخبو فجأة . جدران القاعة تزحف نحوه ، جدران تبدو لعينيه مثل أجنحة سوداء هائلة ، القاعة تدور والدخان يلتف من حوله كخيوط رقيقة ، حاول أن ينهض ، ولكنه اكتشف أنه عاجز تماما عن تحريك جسده ، وبإصرار حاول مرة أخرى ، أمسك بأطراف المنضدة ولكنه ما لبث أن سقط فوق الكرسى كالحجر الثقيل .

أخذ يصرخ ويتوعد فترة من الوقت ثم كف عن الصراخ وجعل يلتقط أنفاسه بصعوبة ، طرح يده فى الهواء ، ذلك الرجل العجوز لماذا يجلس فى الشمس طـــول الوقت ؟ أما مدير الشركة فأعرف كيف انتقم منه ، فى هذه اللحظة سأذهب إليه واحطم رأسه ، أمسك رأسه بيديه ، لم يعد يدرك شيئا مما يدور حوله ، لم يعد هناك صحراء ولا شمس ولا فتيات ، حتى الرجل العجوز تحول إلى حجر أصم ملقى على جانب الطريق ، لم يعد هناك صخب ولا سكون ، اختفت من أمام عينيه الكراسى ووجوه الفتيات وكأسه الفارغة ، امتدت نحوه أيد كثيرة رفعته فى الهواء ثم ألقت به فى هدوء إلى الشارع ، كم من الوقت ظل مستنداً إلى الجدار فى الشارع بلا حركة ، ها هو يخرج من القبر حياً مرة أخرى ، ها هى الحياة تعود إلى جسده وتتمشى فى عروقه لم يبق إلا أن يجر قدميه وينطلق على غير هدى فى المدينة الكبيرة ، ولكنه انطلق هذه المرة وحيداً ، ففى هذه المدينة الغريبة لا يوجد غير الضباب .

حث خطاه عبر الشارع الطويل وقد عاوده الدوار مرة أخرى .




الدرس
الأخير

فى الصباح وجدوه ممدداً على السرير بلا حركة ، تظلل وجهه الحاد القسمات زرقة باهته كسماء الخريف ، تلوح فى عينيه نظرة استياء ، بدا فمه منفرجا قليلا وكأنه كان على وشك أن يقول شيئاً تجمد بين شفتيه فى آخر لحظة ، لقد ظهر عجزه عن فعل شيء لأول مرة ، ولعل نظرة الاستياء فى عينيه تعبر عن ذلك .

كان يرقد ممدداً على ظهره فى سكون الحجر ، ولم تكن تصدر عنه أية حركة ، أخيرا اكتفى بأن ينظر إلى الفراغ فى عجز وان يلقى بيديه إلى جنبه فى هدوء تام .

لقد بدا رجلا آخر ، لم يره أحد على هذه الصورة من قبل ، كانت زوجته تمرر يدها برفق فوق جبينه المجعد ، أما أولاده الثلاثة وابنته الوحيدة فقد أحاطوا به فى نصف دائرة ، لم يجرؤ أحـــد حتى فى هذه اللحظة على الكلام ، لم يكن فى وسع أحد أن ينطق بشيء ، حتى البكاء بدا شيئا غير ممكن ، كانت نظراتهم الصامتة تتأمل ملامحه فى دهشة ، لم يتغير فيه شيء ، كل ما هنالك أن بريق عينيه الصارم قد انطفأ ، لقد خيل إليهم أن عينى الرجل ترمقانهم من خلال ضباب كثيف أو زجاج معتم ، كان هناك إحساس عام بأن ثمة مفاجأة مرعبة قد تنزل بهم فى أية لحظة ، كانوا يحيطون به فى انتظار المفاجأة ، غاب الشعور بالزمن لدى الجميع ، إنهم ينتظرون المفاجأة ، سوف يقوم الرجل بعد قليل ويأمرهم باشارة من يده بأن يتجهوا إلى أعمالهم ، سوف يؤنبهم بشدة وربما صفع أحدهم على

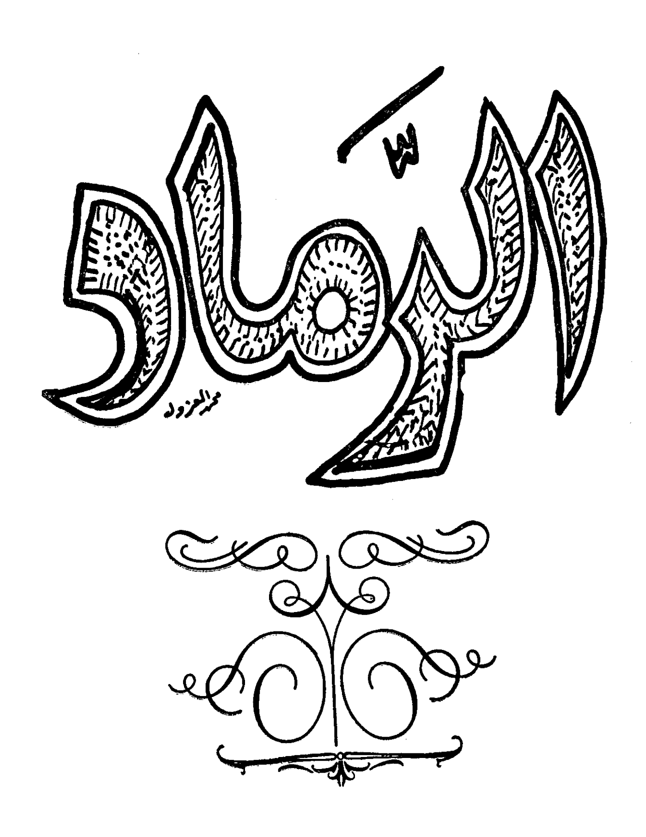
وجهه ، لم يتحرك الرجل ، لقد بدا لهم جميعاً عنيدا ومتكبرا كعادته ، إنه ينظر فى وجوم إلى السقف ، أصابع يديه ملتوية ومنكمشة بعض الشىء ، أنفه ينتصب فى كبرياء ، أنف مستقيم وكأنه أصبع تشير إلى أعلى ، أسنانه نظيفة ، شفتاه منفرجتان قليلا لكنه يصر على الصمت ، إلى متى سيبقى على ذلك الوضع المريب ؟ متى يتكلم وماذا سيقول ؟ هل سيتكلم بهدوء وبلا صراخ لأول مرة فى حياته ، إنه ينام فى هدوء مفتوح العينين ، وسوف يستيقظ بعد قليل ، وعندئذ ينقشع الصمت ، ويعود الصخب كما كان ، ويعود للحياة وجهها القديم الصارم .

لقد طال الإنتظار أكثر مما يجب حتى أنه بدا لهم بلا نهاية ، حتى أن شيئا من الملل شرع يتسرب إلى نفوسهم ، هل سيبقى هكذا إلى الأبد يرقد بلا حركة ، منفرج الشفتين ويصر مع ذلك على ألا يتكلم ، تجمدت أصابع الزوجة فوق الجبين المجعد ، القت على الحجرة الواسعة نظرة سريعة من عينيها المبللتين بالدموع ، لن يتكلم الرجل إلى الأبد ، لا معنى للانتظار ، لقد قال كل ما يريده ولم يعد عنده ما يقوله ، عاش حياة حافلة بالضجيج والآن انتهى كل شىء ، كانت الحجارة تخافه أما الآن فقد انتهى كل ذلك ، من من سكان الشارع لم يسمع صراخه الخشن ، من منهم استطاع أن يرفع رأسه أمامه ، من منهم لم يكن يخشاه ، أما الآن فهو غير قادر حتى على التنفس .

لم يكن يبالى بأى شىء فى هذا العالم ، أما الآن فهو يشيح بعينيه عن كل ما حوله .

تراجعت الزوجة قليلا إلى الوراء ، بسطت ذراعها وفردت أصابعها ، بهدوء امتدت اليد المرتعشة نحو عينى الرجل ، برفق وبرؤوس أصابعها

لمست الجفون لمسة خفيفة ، بدا الرجل فى تلك اللحظة وكأنه أطبق جفنيه
بنفسه ، لم يعد ينظر إلى السقف ولا إلى أى شىء آخر ، لقد بدا للجميع
حينذاك رجلا طيبا وهادئا ووديعا كطفل ، من ركن الحجرة ارتفع صوت
بكاء خافت .


الرماد

اتكأ على حافة المنضدة ، وشرع يرمق المارة فى سكون ، لم يبق سوى الأشباح ، ما زال الوقت مبكراً ، ولكن برودة الجو طردت كل رواد المقهى فى وقت قصير .

ما زال ينتظر ، تعود على الإنتظار فلم يعد يقلقه أن يغمض عينيه ويغفو قليلا ، أو يتصفح جريدة ويعيد قراءة أحد الموضوعات مرة أخرى دون أن يلم بمعنى جملة واحدة ، وفى أحيان أخرى يضع لفافة تبغ فى زاوية فمه ، ينفخ الدخان فى شرود ثم يرمى بالعقب المبلل إلى الرصيف ، تعود على الإنتظار فلم يعد يهمه مرور الوقت بلا نتيجة ، لم يعد ينتظر غروب الشمس أو شروقها ، لم تعد هناك لذة لأى شيء ، فقط كان يصر إصراراً غريبا على الانتظار .

ــ ما الذى يمكن أن يحدث ؟

التفت نحو صديقه الذى يشاركه نفس الميول والأفكار

ــ أعرف أنه لن يحدث شيء

ــ إذن ما الذى تنتظره ؟

ــ أنت تعرف ومع هذا تصر على إزعاجى بهذا السؤال .

ــ قلت لك مائة مرة انها لن تأتى ؟ !

من خلف الزجاج رأى الشمس وهى تنحدر نحو البحر ، وبدأ الشارع

فى تلك اللحظة خاليا تماما ، وبين حين وآخر يتردد صدى أقدام مسرعة ، سحب خفيفة تنتشر فى السماء ، وتبدت جدران العمارات وكأنها ترتعش من البرد .

ـ أنت لا تعرفها

ـ لم يبق لذلك أى معنى الآن

الشمس تنغمس فى الماء ، تبدو من بعيد وكأنها تقاوم الغرق إنها تغوص فى الماء ببطء ، لا فائدة لن تنجو الشمس من الغرق

ـ لو قدر لك أن تراها ولو دقيقة واحدة

ـ ما هى إلا فتاة كأى فتاة أخرى

ـ ليست كأى فتاة أخرى

ـ لا أشك فى أنك صاحب خيال نشط وخصب

ـ لو لم التق بها لظلت مجرد حلم أو خيال كما تقول

اختفت الشمس تحت الماء ، ولم يبق منها سوى وهج أحمر يميل إلى السواد يطفو فوق سطح الماء ، وبدا البحر يعانق الوهج ويذيبه .

ـ رغم ذلك فهى لن تأتى أبدا

ـ أعرف ذلك أكثر منك

ـ إذن من الذى تنتظره

ـ لا أنتظر أحدا غيرها

حل الصمت ، أى شىء يمكن أن يكون موضوع حديث طويل ، الانتظار ، حتى الانتظار لم يعد له معنى فقد رحلت عن الدنيا ولن تعود ، إنه انتظار عابث ويائس ـ إلا إذا كان انتظار اشارة من صاحب المقهى بالانصراف لها معنى ، أجل قد يكون لها معنى .


الصحيفة

اشترى عبد الهادى جريدة ودفع ثلاثين درهما ، وفكر وهو يمد يده إلى البائع أن تلك خسارة لا تعوض ، ولكن قراءة الصحف كالتدخين عادة من الصعب الاقلاع عنها ، جر عبد الهادى قدميه ، وعبر الطريق إلى المقهى ، سحب كرسيا حتى حافة الباب وجلس عليه ، فتح الجريدة ، إنها عادة أخرى أكثر سوءاً فعبد الهادى لا يستمتع بقراءة الجريدة قبل أن يحملق فى المرأة بنظرات فضولية ومتفحصة ، ولايقرأ كلمة قبل أن يكنس الشارع بحثا عن وجه إمرأة أو فتاة .

إنعكست ظلال كثيرة فوق زجاج المقهى ، ولكن لم ينعكس فوقه ظل امرأة واحدة ، تلقى عبد الهادى خيبة أمله فى قلق ودهشة ، إنها أرصفة تمقت وقع أحذية النساء فما العمل ؟

شرع يقرأ الجريدة وهو يتطلع بين حين وآخر إلى الشارع ، قرأ عبد الهادى فى الصفحة الأولى أن الحرب بين الانعزاليين والتقدميين فى لبنان تزداد ضراوة يوما بعد يوم ، تساءل عبد الهادى بينه وبين نفسه : ولماذا الحرب ؟ رفع عينيه عن الجريدة ، ورفع فنجان القهو ة إلى فمه وتطلع إلى الشارع من فوق حافة الفنجان .

عاد عبد الهادى مرة أخرى لقراءة نفس الموضوع « قوات الكتائب والأحرار تقتل وتدمر بجنون ، وتشعل الحرائق فى كل مكان ، وتخيل عبد الهادى بيروت امرأة حزينة رثة الثياب تغسل الدموع وجهها ، تتكوم على حافة الرصيف وبجانبها جثة طفل مات من العطش ، ورأى عبد الهادى

أن الذين يمرون بتلك المرأة يلتفتون نحوها فى اشفاق وذعر ثم يواصلون سيرهم وهم يهزون رؤوسهم .

ألقى عبد الهادى بالجريدة وتطلع إلى الشارع ، ها هو يسمع طرقات حذاء امرأة فوق الرصيف ، لم ير المرأة ولكنه تمكن من تمييز الإيقاع بسهولة نهض على الفور وغادر المقهى متعقبا الصدى الرتيب .

الصعود

كان لا بد من صعود التل الرملى قبل غروب الشمس ، المهمة شاقة وغامضة ، ولم يفكر أحد فيما وراء ذلك ، الصعود أولا وليس من شأن أحد أن يعرف لماذا وما هو الهدف من ذلك ، العدد يزيد عن عشرة ، لا أحد يعرف الآخر ، ولهذا فلم يكن هناك مجال للحديث أو النقاش ، المهمة ليست سهلة وأغرب ما فيها روح العبث التى تسودها ، انحصر التفكير فى الصعود والوصول إلى القمة وما عدا ذلك لا أهمية له ولا معنى .

انتظمت الرؤوس فى خط واحد ، تطلعت العيون إلى قمة التل ، شاهقة بحيث تبدو وكأنها تلامس السماء ، لا مجال لقضاء الوقت فى التطلع إلى القمة ، فالشمس تبتعد فيما وراء التل الرملى وتلقى بضوء أصفر شاحب بدأ وكأنه ممر مغلق يمتد بين الشمس وقمة التل .

غرس الرجال أقدامهم وأصابعهم فى الرمال ، إنهم يتعلقون بالرمال الناعمة وكأنهم يتعلقون بالهواء ، ومع ذلك فهم يصعدون ، ضوء الشمس يبهت بالتدريج ويتحول إلى خيوط رمادية قاتمة ، إنهم يصعدون بجهد خارق ، ينحدرون إلى أسفل ثم يستأنفون محاولة الصعود من جديد ، إنهم يقتربون من قمة التل أو هكذا خيل إليهم ، يتطلعون إلى الشمس الغاربة بين حين وآخر ، ما الذى يحدث لو أن الشمس اختفت قبل أن يبلغوا القمة ، طرأ السؤال باذهانهم وكأنهم امتداد لمحاولة الصعود بلا هدف ، لن يخسر أحد شيئا بالتأكيد والمهم أنهم استجابوا للاوامر بلا تردد .

غربت الشمس ، اختفى الضوء وحل الظلام ، اختفت الشمس فى اللحظة التى وصلت فيها المجموعة إلى قمة التل الرملى ، وعندئذ بدأ السقوط من القمة ، إنهم يتدحرجون ولا أحد يدرى فى أى اتجاه ، فقد غطى الظلام على كل شى ، ولم يعد هناك فرق بين القمة والسفح أو بين السماء والأرض ، ولم يعد هناك فرق بين الصعود وبين التدحرج إلى القاع .

كتب صدرت للمؤلف

١ ــ صخب الموتى ١٩٧٥ قصص

٢ ــ توقيعات على اللحم ١٩٧٦ قصص

٣ ــ الفئران تطير أيضا « قصص للأطفال » ١٩٧٩

٤ ــ حكايات شارع الغربى « مواقف وشخصيات » ١٩٧٩

٥ ــ ذاكرة الكلمات « دراسة أدبية » ١٩٨٠



قطاع الورق والطباعة
مطابع الثورة العربية
طرابلس

قطاع الكتاب والتوزيع والإعلان والمطابع
ص.ب ٩٥٩ طرابلس/الجماهيرية

ثمن النسخة ٣٥٠ درهم